غينكي كاوامورا

مكتبة

لو اختفت القطط من العالم!

ترجمة: ميسرة عفيفي

مراجعة: بثينة الإبراهيم

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

لو اختفت القطط من العالم!

الكاتب: **غينكي كاوامورا**

عنوان الكتاب: **لو اختفت القطط من العالم!**

ترجمة: **ميسرة عفيفي**

مراجعة عن الإنكليزية: **بثينة الإبراهيم**

العنوان باللغة الأصلية: **世界から猫が消えたなら**

الكاتب: **川村元気**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-86-5

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2025

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

Sekai kara neko ga kieta nara © 2012 Genki Kawamura. All rights reserved. Publication rights for this Arabic edition arranged through KODANSHA LTD., Tokyo.

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

غينكي كاوامورا

مكتبة
t.me/soramnqraa

لو اختفت القطط من العالم!

ترجمة: **ميسرة عفيفي**

مراجعة عن الإنكليزية: **بثينة الإبراهيم**

منشورات تكوين | صرايا
TAKWEEN PUBLISHING

تنويه لا بد منه

يتمتع الأدبُ الياباني بخصوصية تميزه عن الآداب الأخرى، ذلك أن «عبقريته تكمن في إيمانه بأن الكلمات تستطيع أن تصل إلى ما هو استشرافيٌّ متعالٍ، وذلك بمعالجة ما هو عينيٌّ ماديٌّ مُجسَد. فهو في آنٍ أدبٌ ينتمي إلى هذا العالم وأدبٌ يرتفع بمؤلفيه وقرائه عن المستوى الأرضي واليومي إلى أفقٍ أعلى»، كما وصفه آلان تانسمان في كتابه «الأدب الياباني» نقلًا عن مقالة للدكتور ماهر شفيق فريد.

ولذا فقد يستغرب القارئ أسلوب العمل الذي نضعه بين يديه، إذ لم يألفه فيما قرأه من هذا الأدب، لا سيما أنه مترجمٌ عن اليابانية مباشرة، لا عن لغة وسيطة قد يفقد فيها العمل شيئًا من سماته الأصلية نتيجة ذلك. إضافة إلى أن السؤال الذي تطرحه الرواية من الأسئلة الجوهرية التي تخطر للمرء كل يوم: ما معنى الحياة؟ المعنى الذي يكتشفه البطل بعد عقده صفقةً مع الشيطان، تعيد إلى الأذهان أسطورة فاوست.

أخيرًا، لا بد من الإشادة بجهد الأستاذ ميسرة عفيفي في الترجمة، وبالحواشي التي أسهمت في تسليط الضوء على جوانب كثيرة من

المعتقدات اليابانية والثقافة اليابانية التي ما زلنا نجهلها في عالمنا العربي. وبهذا المعنى، تأتي هذه الرواية لتمنح القارئ نافذةً يطل منها على جوهر التجربة اليابانية في صوغ الأسئلة الكبرى للوجود.

بثينة الإبراهيم

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

لو اختفت القطط من العالم،

كيف سيتغير العالم؟ وكيف ستتغير حياتي؟

لو اختفيتُ أنا من هذا العالم،

هل سيأتي الغد المعتاد دون أن يتغير شيء في هذا العالم؟

ربما تظن أن هذا خيال ووهم سخيف.

ولكن، أرجوك، صدقني.

فما سأكتبه لك، هي أحداث الأيام السبعة الماضية التي وقعت لي بالفعل.

كانت سبعة أيام عجيبة جدًا!

وعمّا قليل سأفارق الحياة.

لماذا حدث هذا؟

أعزم على كتابة السبب فيما يلي من صفحات.

من المؤكد أن رسالتي هذه ستكون طويلة.

ولكني أرجوك أن تبقى معي حتى النهاية.

ستكون هذه أول وآخر رسالة أرسلها إليك.

أجل، هذه هي وصيتي الأخيرة.

الاثنين
ظهور الشيطان

لم أستطع إيجاد «عشرة» أشياء أريد فعلها قبل أن أموت.

شاهدتُ فيلمًا في الماضي، أعدّتْ بطلته قائمة بعشرة أشياء تود فعلها قبل أن تموت.

ولكن هذا كذب بواح.

كلا، لن أصفه بالكذب. ولكن، القائمة نفسها كلام فارغ بالتأكيد.

ماذا؟ تسألني: لماذا أرى ذلك؟

لأنني ... كيف أشرح لك هذا؟ لقد جربتُ الأمر بنفسي. إنه أمر محرج، ولكنني كتبتُ قائمة «العشرة» تلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حدث ذلك قبل سبعة أيام.

كنتُ مصابًا بنزلة برد دامت وقتًا طويلًا جدًا، ولكنني واصلت عملي في توزيع البريد كل يوم. لازمتني حمى طفيفة، وآلمني الجانب الأيمن من رأسي ألمًا خفيفًا. حاولتُ بشكل أو بآخر خداع المرض باستخدام أدوية عادية تُباع في الصيدلية (فأنا أكره الأطباء بشدة، كما

تعلم). وبعد مضي أسبوعين، وبدون أي تحسن يُذكر، قررت أخيرًا أن أذهب إلى الطبيب.

وهناك كانت المفاجأة... لم تكن نزلة برد.

بل كان ورمًا في المخ. من الدرجة الرابعة.

هذا هو التشخيص الذي أخبرني به الطبيب بكل وضوح. قال لي: قد تعيش ستة أشهر كاملة، وقد لا تعيش إلا أسبوعًا واحدًا. ثم شرح لي الطبيب خيارات العلاج: العلاج الكيماوي، الإشعاع، الأدوية المضادة للسرطان، الرعاية التلطيفية إلخ. ولكنني لم أسمع شيئًا مما قاله.

اعتدت في طفولتي تعلم السباحة في العطلة الصيفية، فكنت أقفز في حمام السباحة البارد ذي اللون الأزرق. طَشْ! بقبقبق. ثم يغرق جسمي في الماء.

أسمع صوت أمي:

- لا تنسَ تمارين الإحماء!

كان صوتها في الماء مكتومًا لا يُسمع بوضوح. عادت إليَّ تلك «الذاكرة الصوتية» التي نسيتُها تمامًا.

انتهى الكشف الذي استغرق وقتًا طويلًا.

صمت الطبيب، فأسقطت حقيبتي على الأرض، وخرجتُ من الغرفة بخطوات مترنحة. لم أسمع صوت الطبيب الذي حاول إيقافي، بل اندفعت خارجًا من المستشفى، أصرخ بأعلى صوتي: «آآآآآه!!!». اصطدمت بالمارة وسقطت أرضًا، ثم نهضت أركض متعثرًا، ساقاي

تخبطان بعضهما بعضًا في مشهد بائس، حتى بلغت سفح الجسر، وهناك... خارت قواي، وبدأت أزحف على الأرض باكيًا...

كل هذا محض كذب. ليس هذا ما حدث

العجيب في أمر الإنسان أنه حين يبلغه خبر الموت، تتنزل عليه سكينة غريبة.

لم يكن الحزن أول ما شعرت به، بل فكرت في أشياء تافهة:

ما زال ينقصني ختم واحد فقط لأحصل على جلسة مساج مجانية من المحل القريب!

اشتريت مؤخرًا كمية كبيرة من مناديل الحمام ومواد التنظيف!

بدأ الحزن يتغلغل إلى أعماقي شيئًا فشيئًا.

فأنا لم أتجاوز الثلاثين من عمري! لعلي تجاوزتُ عمر جيمي هندريكس أو جان ميشيل باسكيات، لكنني أشعر أن أمامي الكثير مما ينبغي أن أفعله، شيء لا يستطيع أي إنسان في العالم أن يفعله سواي، لا بد أن هذا الشيء موجود.

لم أفكر مطولًا في الأمر. ومضيت أمشي تائه الفكر، حتى رأيت أمام محطة القطار شابين يعزفان على الغيتار ويغنيان بصوت عالٍ:

الحياة تنتهي يومًا ما،

حتى يأتي آخر أيامها،

افعل ما تريده،

افعل! افعل! افعل! حتى النهاية

واستقبل بذلك غدًا جديدًا.

يا لها من حماقة!

هذا ما يُطلق عليه انعدام الخيال! ليتكما تظلان تغنيان أمام المحطة إلى الأبد!

شعرت بغضب لا أستطيع كبحه، لكنني كنت في حالة من التيه الكامل، فقررتُ العودة إلى بيتي ببطء شديد مستغرقًا في ذلك أطول وقت ممكن. صعدتُ درجات السلم وأنا أخبط بقدميّ، وفتحتُ باب شقتي المتهالك. وما أن نظرتُ إلى شقتي الضيقة، حتى اجتاحني اليأس أخيرًا. أظلم كل شيء أمامي بمعنى الكلمة، وسقطت على الأرض مغشيًّا عليّ.

استيقظت عند مدخل الشقة، تُرى كم مر من الوقت؟

رأيتُ أمام عيني كرة تمازج فيها الأبيض والأسود والرمادي. ثم صرختْ تلك الكرة قائلة: «مياو»، أخيرًا اتضحت الرؤية، إنه القط.

قطي الحبيب، مرت أربع سنوات بالفعل منذ صار رفيقي الوحيد في هذه الحياة.

اقترب القط مني، ثم صاح بقلق مرة أخرى: «مياو»، يبدو أنني لم أمت بعد. اعتدلت قليلًا، ما زالت الحمى تعتريني، وما زال الصداع قائمًا. أجل، المرض حقيقة واقعة لا شك فيها.

فجأة، سمعت من داخل الغرفة صوتًا مرحًا.

- تشرفتُ بلقائك!

كنتُ أنا الواقف هناك.

كلا، فأنا هنا، لذا فالأدق أن أقول إنه رجلٌ غريبٌ عني، ولكنه يشبهني تمامًا.

خطرت ببالي كلمة «الشبيه» (doppelgänger). كلمة قرأتها في الماضي في كتاب ما، وتعني «الذات الأخرى» التي تظهر لمن اقترب من الموت. هل أنا أهذي؟ أم أن ملاك الموت جاء لاستقبالي بالفعل؟ كدت أفقد وعيي مجددًا لكنني تماسكت، وقررت أن أواجه الواقع.

- حسنًا ... مَن تكون أيها السيد؟

- مَن أكون برأيكَ؟

- إمم ... ملك الموت؟

- إجابة قريبة جدًا!

- قريبة؟

- أنا ... الشيطان.

- الشيطان؟!

- أجل، الشيطان!

وهكذا ظهر الشيطان في حياتي (بكل بساطة).

هل سبق لك أن رأيتَ الشيطان؟

أنا رأيتُه!

ليس للشيطان الحقيقي وجهٌ أسود، ولا ذيلٌ مدببٌ، ولا يحمل رمحًا في يده.

بل له ملامحك نفسها، فالجوهر الحقيقي «للشبيه» (doppelgänger) هو الشيطان.

وحين حدّقت به، أدركت أن له ملامح وجهي ذاتها، وهيئة جسدي عينها. غير أن ملابسه على النقيض تمامًا من ملابسي؛ فأنا بطبيعتي لا ألبس إلا الأبيض والأسود: سروال أسود، وقميص أبيض تعلوه سترة سوداء. هكذا أنا دومًا، رجل بلونٍ واحد. لطالما غضبت والدتي مني في الماضي، وكانت توبخني كثيرًا بقولها: «ها أنت تعيد شراء الثياب نفسها مرة بعد مرة!» ومع ذلك، لا تزال يدي تمتد إلى هذا النمط المعتاد من الملابس.

في المقابل، كان الشيطان مفرطًا في البهرجة والبهجة؛ إذ كان يرتدي قميص «ألوها» أصفر اللون، رُسمت عليه صور كثيرة، كأشجار نخيل وسيارات أمريكية، كالقمصان التي يلبسها الرجال في هاواي. وعلى الرغم من البرد القارس في الخارج، فقد ارتدى سروالًا قصيرًا ونظارة شمسية تعلو رأسه، كأنه يقضي إجازته الصيفية بكل قواه.

وبينما كنت أغلي من الغيظ والضيق، دون أن أجد السبيل المناسب للتعبير عنه، بادرني الشيطان بالكلام:

- حسنًا، ما الذي تنوي فعله؟

- هاه؟

- لم يتبق إلا القليل من عمرك، أليس كذلك؟

- أجل، هذا صحيح.

- ماذا ستفعل إذًا؟

- في البداية، سأكتب قائمة «بعشرة أشياء أودّ فعلها قبل أن أموت».

- مستحيل! هل تقصد أن تفعل ما فعلته البطلة في ذلك الفيلم الشهير؟

- أجل، هذا صحيح.

- هل ستقدم حقًا على فعل أمر سخيف كهذا؟

- وما المانع؟

- أرجوك! الجميع يفعلون ذلك. يقول أحدهم: سأحقق كل ما أرغب فيه قبل أن أموت! أو ما شابه، إنه طريق يمر عليه الجميع مرة واحدة ... فلا وجود لمرة ثانية بالتأكيد!

يضحك الشيطان وحده وهو يضع يده على بطنه من فرط الضحك.

- لا شيء يدعو إلى الضحك إطلاقًا...

- أ ... آه ... أجل، معك حق. بالتأكيد هو كذلك، التجربة خير برهان! هيا بنا، لنكتب القائمة على وجه السرعة!

وهكذا، قررت أن أكتب قائمة «عشرة أشياء أودّ فعلها قبل أن أموت» على ورقة بيضاء.

ما هذا الذي أفعله وأنا على شفا الموت! بينما كنتُ أكتب في حزن، شعرت بالغباء لدرجة لا تحتمل. كان رأسي يغوص في فوضى لا تُطاق. ورغم ذلك انتهيت من كتابة القائمة، وأنا أحاول صدّ الشيطان المتطفل الذي استمر في استراق النظر، ووسط محاولات قطي المتكررة للدوس

على الورقة، شأنه شأن كل القطط التي لا يمكنها ترك ورقة دون العبث بها.

١. القفز من طائرة نفاثة بمظلة

٢. تسلُّق قمة إيفرست

٣. قيادة سيارة فيراري على طريق الأوتوبان[١] بسرعة جنونية

٤. تناول وليمة مانشو-هان[٢]

٥. الركوب على ظهر الآلي غاندام

٦. الصراخ في قلب العالم: أحبك[٣]!

٧. مواعدة ناوسيكا بطلة فيلم الأنمي الشهير.

---

(١) الأتوبان: طرق السيارات السريعة في ألمانيا، ليس لها حد أقصى للسرعة. وتعد القيادة في تلك الطريق بسرعة جنونية حلمًا للكثير من محبي السيارات في العالم/ المترجم.

(٢) وليمة مانشو-هان: وليمة كانت تقام في المناسبات المهمة، كجولة إمبراطور الصين، أو كبار مسؤولي وحكام سلالة تشينغ. وفي عام ١٩٥٦، أُقيمت وليمة لمدة يومين، شارك فيها ٢١ فردًا من ذواقة الطعام، ورُوّج لها في مطعم تاتونغ في هونغ كونغ، وهو مطعم متخصص بالولائم الفاخرة. وأصبح مصطلح وليمة مانشو-هان شائعًا في اليابان وحلمًا من أحلام الشباب الياباني. تراجعت مأدبة مانشو هان، التي تُشبه الاستعراضات، في هونغ كونغ في ثمانينيات القرن الماضي/ المترجم.

(٣) عنوان رواية يابانية صدرت عام ٢٠٠١ وحققت أعلى المبيعات في تاريخ اليابان وتحولت إلى فيلم ورواية مصورة ومسلسل تلفازي وآخر إذاعي ومسرحية. وصار محتوى الرواية التي تدور حول الحب الخالص والوفاء التام للمحبوب ظاهرة اجتماعية في اليابان، وبات محل تقديرهم وإعجابهم. واختيرت كلمة سكاتشو -وهي اختصار للعنوان باللغة اليابانية- ضمن قائمة أكثر الكلمات انتشارًا في اليابان لعام ٢٠٠٤. ترجمت الرواية إلى الإنكليزية بعنوان سقراط يحب (Socrates in Love) وهو العنوان الأصلي الذي وضعه الكاتب للرواية قبل أن يقترح عليها المحرر تغييره إلى هذا العنوان/ المترجم.

٨. الاصطدام عند ناصية الطريق بفتاة جميلة تحمل كوبًا من القهوة، وتبدأ قصة حب من النظرة الأولى.

٩. أسرع بالهرب من وابل المطر لأقف تحت سقف يحميني، فأجد زميلة الدراسة التي كنت أحبها من طرف واحد.

١٠. أريد أن أحب ...

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ما هذا؟

- آه.

- أنت لست تلميذًا في المدرسة المتوسطة! لقد شعرت بالخجل!

- ... آسف.

يا له من أمر مثير للشفقة! هذا ما توصلت إليه بعد عناءٍ، حتى قطي الحبيب بدا مذهولًا فلم يقترب مني.

وفيما أنا غارق في كآبتي، وضع الشيطان يده على كتفي وقال:

- إمم، على أي حال، لنبدأ بتنفيذ فكرة القفز من الطائرة. اسحب النقود من الصراف الآلي ولنتوجه إلى المطار فورًا!

وهكذا بعد ساعتين فقط، كنت على متن طائرة نفاثة تحلق على ارتفاع ثلاثة آلاف مترًا من الأرض.

- حسنًا، انطلق!

حثني صوت الشيطان المرح، فقفزتُ من السماء.

أجل، هذا ما حلمتُ به دائمًا؛ سماء زرقاء تمتد أمام بصري، وغيوم مهولة، وأفق يمتد إلى ما لانهاية. رؤية الأرض من علٍ قلبت القيم رأسًا

على عقب، وأنستني تفاهات الحياة اليومية، وجعلتني أعضُ بالنواجذ على الحياة في هذه الأرض.

كان هذا قول أحدهم، ولكنه لم يحدث معي.

كنتُ أشعر بخيبة أمل حتى قبل أن أقفز من الطائرة، فالجو بارد، والارتفاع شاهق، والخوف يتملكني. تساءلت: كيف يندفع الناس لفعل هذا بإرادتهم الحرة؟ هل هذا هو ما أردتُه؟ هذا هو ما فكرتُ فيه بشرود وأنا أقفز، ثم مرة أخرى غمرني ظلام حالك بمعنى الكلمة.

حين أفقت، وجدت نفسي نائمًا على سريري في شقتي.

واستيقظتُ مرة أخرى على صوت قطي يموء: «مياو»، اعتدلت من رقودي، فشعرت بألم في رأسي، بلا أي تغير. ألم يكن هذا حلمًا؟

- لا تفعل بي هذا مرة ثانية!

كان ألوها بجواري (قررتُ من الآن فصاعدًا أن أطلق هذا الاسم على الشيطان بيني وبين نفسي).

- أعتذر إن كنت قد أزعجتك.

- كان من الممكن أن تموت ... حتى وإن كنتَ ستموت قريبًا.

ثم انفجر ألوها في الضحك وحده مجددًا.

احتضنتُ قطي في صمت. كان ناعمًا ودافئًا، وملمسه مخمليًا وأملس. كنتُ أحتضنه في العادة بلا مبالاة، ولكنني شعرت لأول مرة أنه يمنحني إحساس الحياة.

- ولكن ... ليس لدي أشياء كثيرة أرغب بفعلها قبل الموت.

- أحقًا ما تقول؟

- لا يصل عددها إلى عشرة بأي حال، وإن وجدت فهي أشياء مملة، بالتأكيد.

- ربما ما تقوله صحيح.

- بالمناسبة.

- ماذا؟

- لماذا أتيت إلى هنا؟ أو الأصح القول ماذا تفعل هنا؟

وهنا أطلق ألوها ضحكة مخيفة.

- أتود أن تعرف حقًا؟ حسنًا هل أخبرك؟

خفت من ألوها الذي تغيرت ملامح وجهه فجأة. أصابتني الحيرة، وأنبأني حدسٌ داخلي بخطرٍ داهم، هكذا صرخت غريزتي.

- انتـ... انتظر قليلًا.

فسألني ألوها:

- ماذا حدث؟

فأخذتُ نفسًا عميقًا وهيأت نفسي، لا بأس. لن يحدث شيء بسماع ما يقوله فقط.

- كلا، لا بأس، أخبرني أرجوك.

- في الحقيقة ... ستموت غدًا.

- ماذا؟!

- نعم، أتيتُ لأخبرك أنك ستموت غدًا.

لهول الصدمة فقدتُ القدرة على الكلام، واستولى عليّ يأس هائل، وخارت كل قواي وارتعشت ركبتاي.

وإذ رآني ألوها على تلك الحالة بدأ يتحدث بمرح:

- لا تبتئس هكذا، فلديّ فرصة عظيمة من أجلك!

- ... فرصة عظيمة؟

- هل تريد أن تموت كما هو مرتب هكذا؟

- بالطبع لا. أريد أن أعيش... إن كان ذلك متاحًا.

فتابع ألوها كلامه دون أن يُغفل أي تفصيل:

- هناك طريقة واحدة.

- طريقة؟

- يمكنك أن تُسمّيه سحرًا[1]، يمكن به تمديد عمرك.

- هل أنت جاد؟

- أجل، لكن بشرط. فلهذا العالم قوانين أساسية لا يمكن اختراقها.

- بمعنى؟

- يجب أن تخسر شيئًا كي تكسب شيئًا.

- ... وماذا عليَّ أن أفعل؟

- الأمر سهل، تعقد معي صفقة.

- صفقة؟

---

(١) كلمة سحر باللغة اليابانية تعني حرفيًا طريقة شيطانية / المترجم.

- تحصل على يوم إضافي في حياتك مقابل اختفاء شيء واحد فقط من هذا العالم..

كان من الصعب تصديق هذا الحديث المفاجئ.

حتى وإن قيل لي إنني على شفا الموت، فلم أبلغ بعد مرحلة الهذيان. ثم من ذا الذي أعطى ألوها هذه الصلاحية في المقام الأول؟

- تتساءل عن صلاحياتي ... أليس كذلك؟

- ماذا؟ كلا، كلا ...

هل هو شيطان حقًا؟ أيعقل أنه يقرأ أفكاري؟

- قراءة أفكار البشر أمر في منتهى السهولة، فأنا -على أي حال- شيطان!

- إمم ...

- ليس لدينا وقت، ألم يحن الوقت لتصدق؟ الصفقة حقيقية!

- لو كانت حقيقية فلا مانع ولكن ...

- حسنًا سأشرح لك تفاصيل الصفقة، فمن الواضح أنك لا تصدقني.

قال ألوها ذلك، ثم شرع يتحدث:

- هل تعرف سفر التكوين؟

- في الكتاب المقدس؟ أجل أعرفه، ولكني لم أقرأه بعد.

- أحقًا؟ ... لو أنك قرأته، لوفرت عليَّ كثيرًا من الوقت.

- أعتذر لك.

- حسنًا، دعني أوجز لك الشرح! خلق الرب هذا العالم في سبعة أيام.

- سمعت هذا من قبل.

- في اليوم الأول، كان العالم يغمره الظلام، فخلق الرب النور، وهكذا ظهر الليل والنهار. وفي اليوم الثاني، خلق السماوات، وفي الثالث خلق الأرض، وهذا هو خلق السماوات والأرض! وهنا وُجدت البحار ونبتت النباتات.

- حدث عظيم.

- أجل! وفي اليوم الرابع، خلق الشمس والقمر والنجوم، أي ميلاد الأجرام السماوية! ثم في اليوم الخامس خلق الأسماك والطيور وفي السادس خلق الحيوانات، وفي النهاية خلق الربُ «الإنسانَ» على صورته، وها قد ظهر البشر! أمّا في اليوم السابع فقد استراح الرب! حتى الرب في حاجة إلى الراحة.

- أي الأحد!

- بالضبط، ولكن ألا ترى أن الأمر مذهل؟ خلق كل شيء في سبعة أيام فقط! يا لعظمة هذا الرب! يستحق الاحترام حقًا!

أشعر أنه يتخطى الاحترام وهذه المشاعر الرخيصة ... ما علينا لأستمع لباقي الحديث.

- كان آدم أول إنسان خلقه الرب، ولكن لّما كان الرجل يشعر بالوحدة، خلق له حواء من ضلعه. ولأنهما كانا في منتهى السكينة والطمأنينة، عرضتُ على الرب فكرة أن أغويهما ليأكلا التفاح.

- التفاح؟

- أجل، كان آدم وحواء يسكنان في جنة عدن، ومباح لهما أكل أي شيء وفعل أي شيء، بلا موت ولا شيخوخة. ولكنهما مُنعا أمرًا واحدًا فقط، وهو الأكل من شجرة التفاح، شجرة «معرفة الخير من الشر».

- مفهوم.

- فلمّا أغويتُهما أكلا منها معًا.

- شنيع، أنت شيطان حقًا!

- هذا ما كان. وبهذا طُرد آدم وحواء من الجنة وفقد الإنسان خلوده وشبابه، وبدأ تاريخ مهول من الصراعات والنزاعات.

- يا لك من شيطان رجيم!

- كلا، كلا، لستُ بهذا السوء. ثم في وقت لاحق أرسل الرب ابنه، المسيح، إلى هذه الأرض. لكن محاولة المسيح لم تفلح تمامًا في إقناع البشر بالتوبة، وفي نهاية المطاف قتلوا المسيح الذي ...

- هذه الجزء أعرفه جيدًا.

- ثم استمر البشر في اختراع الأشياء تلو الأخرى، سواء أكانوا بحاجة إليها أم لا.

- مفهوم.

- لذا اقترحتُ على الرب، أن يسمح لي بالهبوط إلى الأرض، لأساعد الإنسان في تحديد ما يحتاج إليه وما لا يحتاج إليه.

فأخذت من الرب عهدًا: أن أمد في حياة الإنسان يومًا واحدًا كلما قرر التخلّص من شيء. وافق الرب على منحي هذا الحق، ومنذ ذلك الحين وأنا دائم البحث عن بشر يقبلون هذه الصفقة. حتى اليوم، أبرمتُ صفقات مع العديد من البشر. بالمناسبة، أنت رقم ١٠٨.

- رقم ١٠٨؟

- أجل! عدد قليل على غير المتوقع، أليس كذلك؟ مئة وثمانية فقط في العالم كله! هذا يعني أنك محظوظ جدًا. تتخلص من شيء من الوجود، فتحصل على يوم إضافي في حياتك. أليست صفقة مغرية؟

كان اقتراحًا مفاجئًا جدًا وسخيفًا، أشبه بإعلان في برنامج تلفزيوني. مستحيل أن تمتد الحياة بمثل هذه الصفقة السهلة! لكن، سواء أصدقته أم لم أصدقه، كان ذلك رهانًا سهل القبول، فموتي محتوم في جميع الأحوال، ولا خيار لي.

أعدتُ ترتيب الأمور في ذهني:

إذا جعلتُ شيئًا واحدًا يختفي، تطول حياتي يومًا إضافيًا.

ثلاثون شيئًا يعني ثلاثين يومًا. ثلاثمئة وخمسة وستون شيئًا تساوي عامًا كاملًا.

يا لها من صفقة سهلة، هذا العالم يعج أصلًا بتفاهات سخيفة لا ضرورة لها! البقدونس فوق طبق الأرز بالأومليت، المناديل الورقية التي توزع أمام المحطات، الكتيبات السميكة التي تشرح طريقة استخدام

الأجهزة الكهربائية، بذور البطيخ. بتفكير سريع سأعثر على الكثير والكثير من الأشياء الزائدة عن الحاجة، وإذا رتبتها بعناية، فقد تصل القائمة إلى مليون أو مليونين من الأشياء التي لا ضرر من اختفائها.

إذا كان عمري الافتراضي سبعين عامًا، يتبقى لي أربعون عامًا تقريبًا.

فلو أخفيتُ من الوجود أربعة عشر ألفًا وستمئة شيء، فلن يتغير الأمر كثيرًا. وإن واصلت الإخفاء أكثر وأكثر، قد أعمّر مئة عام أو مئتين!

وكما قال ألوها، لقد استمر البشر عشرات الآلاف من السنين في اختراع سقط متاع يعد ولا يحصى. وإذا اختفى شيء لن يضر ذلك أحدًا، بل سيصبح العالم أسهل، وسيشكرني الناس على الأرجح.

إلى جانب ذلك، فإن مهنة ساعي البريد التي أعمل بها حاليًا إلى زوال، وربما يأتي قريبًا يوم تختفي فيه الخطابات والبطاقات البريدية. وإن تأملت الأمر، فمعظم ما يفيض به هذا العالم يقع في منطقة رمادية، «وجوده مثل عدمه»، بل إن هذا ينطبق على الإنسان ذاته. إن العالم الذي نعيشه بمثل هذا السخف.

- لا مانع، سأفعل ما تشاء، أرجوك أطِل عمري.

قبلتُ الصفقة، وما أن عقدتُ العزم على محو الأشياء حتى شعرتُ بشجاعة تتفجر داخلي.

- أوه! في النهاية قبلتَ العرض!

بدا ألوها سعيدًا.

- ألم تعرض عليَّ الأمر لأقبله... لا بأس، حسنًا ماذا يمكنك أن تخفي؟ إمم... حسنًا في البداية... هذه البقع التي على الجدار!

-

- والغبار المتراكم فوق أرفف الكتب!

-

- ثم العفن على بلاط الحمام!

- ... انتظر ... لستُ عامل النظافة! لا تكن وقحًا وأنت تتعامل مع الشيطان!

- هل أسأت فهم الصفقة؟

- بالتأكيد! فأنا من يقرر ما الذي يختفي!

- وكيف تقرر ذلك؟

- لنقل حسب المزاج.

- المزاج؟

- أجل، دعني أفكر... ماذا يختفي أولًا...

قال ألوها ذلك، وراح يعاين زوايا الغرفة.

أخذتُ أتابع نظراته بقلق، وأنا أتوسل إليه في سرّي: أرجوك لا تقترب من تماثيل شخصيات الأنمي المصغرة، ولا تلمس ذلك الحذاء الرياضي النادر.

ولكن عندما فكرتُ بجدية، تبيّن لي أن حياتي ستمتد في المقابل، بمعنى أنها صفقة مع الشيطان، مستحيل أي يرضى بمثل هذه الأشياء

البسيطة. هل سيخفي شيئًا بأهمية الشمس؟ أم القمر؟ البحار أم الأرض؟ وحين أدركت ضخامة الحدث، كانت عينا ألوها قد تسمرتا على ما فوق النضد.

أمسك ألوها بيده تلك العلبة الصغيرة، يهزها، فتحدث صوت خشخشة.

- ما هذا؟

- إمم... جبل عش الغراب.

أمال ألوها رأسه، يبدو أنه لم يفهم.

- وما هذا؟

أمسك ألوها بيده الأخرى العلبة المجاورة التي تماثل الأولى حجمًا. يهزها فتصدر صوت خشخشة.

- هذه تُدعى قرية براعم البامبو.

- براعم بامبو؟

- ليست براعم بامبو، ولكن قرية براعم البامبو.

- ما هذه الألغاز؟!

- أعتذر لك، كلاهما نوع من الشوكولاتة.

- شوكولاتة؟

- أجل شوكولاتة فقط.

لقد حصلت عليهما جائزة ترضية في قرعة الحظ التي أُقيمت بسوق الحي قبل أيام، ثم تركتهما فوق الطاولة. والحق أنني أجدها فكرة غريبة،

بل عجيبة، أن تُصنع الشوكولاتة على هيئة عش غراب وبراعم بامبو، ولا مفر من أن يختار الشيطان ذاته أمامها.

- فهمت، لقد سمعت أن البشر مهووسون بصناعة الشوكولاتة، ولم أتخيل أن الحال وصلت إلى هذا الحد. ومع ذلك، لماذا عش الغراب وبراعم البامبو تحديدًا؟

- سؤال وجيه... لم أفكر فيه من قبل.

- ما رأيك هل نختار الشوكولاتة إذًا؟

- ماذا؟

- أقصد، ما سنخفيه من هذا العالم!

- هل يمكن اتخاذ القرار بهذه السهولة؟

- لأنها البداية.

لو اختفت الشوكولاتة من العالم!

رحتُ أتخيل، كيف سيتغيّر هذا العالم؟

سيبكي مدمنو الشوكولاتة في العالم أجمع، ويصرخون ويعتريهم حزن عميق، وتنخفض نسبة السكر في دمائهم، وتغدو حياتهم خالية من الروح.

في عالم بلا شوكولاتة، هل تلعب المارشملو أو الكراميل هذا الدور فتتصدران المشهد؟ لا أظن، فليس لهما مثل هذه القوة. لا جدال أن البشر سوف يسعون حثيثًا لابتكار حلوى من نوع جديد، يكون بديلًا عن الشوكولاتة.

وكلما ازددتُ تفكيرًا، ازددتُ تأملًا في شهوة الإنسان للطعام، تلك الشهوة التي لا تهدأ ولا تمل.

أنظر إلى قطي العزيز بجواري، يأكل بقايا الطعام التي قدمتها له منذ قليل مع الأرز. ولا داعي للقول إن طعام القطط «علف». أمّا البشر، فهم مختلفون، إذ يهتمّون جدًا بفعل الأكل ذاته.

فالإنسان وحده من يقتطع من وقته ساعات لصنع الطعام، ولإضفاء النكهات، ولتشكيله بأبهى صورة، ثم تقديمه على المائدة بأناقة. والشوكولاتة أفضل مثال على ذلك، فهي تُحشى بالمكسرات، وتكوّن الطبقة الخارجية للبسكويت، وتُصنع في أشكال عش الغراب، أو براعم البامبو. لقد كانت الشوكولاتة، حتى الآن، محركًا لشهوة الإبداع لدى البشر، ويمكننا القول كذلك إن شغفهم بالطعام كان أحد أسباب تطور البشرية وتقدمها.

لكن هذا لحسن حظي أنقذ حياتي!

فمهما بحثنا في جميع أنحاء العالم، فلن نعثر على ذلك الأحمق الذي يقول: «سأضحي بحياتي فداءً للشوكولاتة!» أنا محظوظ إن استطعت تمديد حياتي مقابل اختفاء الشوكولاتة فقط. وهناك الكثير والكثير من الأشياء التي لا قيمة لها مثل الشوكولاتة. لذا دعني أُخفي شيئًا تلو الآخر... وأطيل حياتي يومًا بعد يوم!

حين بدأت أتشبث بخيط الأمل الرقيق هذا في صفقتي مع الشيطان، باغتني صوت ألوها:

- هل هي لذيذة؟

سألني وهو ينقل عينيه بين جبل عش الغراب وقرية براعم البامبو.

فأجبتُ:

- لذيذة جدًا.

- إمم...

- ألم يسبق لك تذوقها من قبل؟

- مطلقًا.

- جربها إن أردتَ.

- كلا، فطعام الإنس لا يناسبني، نوعًا ما ... المذاق نفسه ...

- إمم.

اجتاحتني رغبة عارمة أن أسأله: «ماذا يأكل الشيطان إذًا؟»، ولكنني قررت كبت رغبتي تلك. وبدا أن ألوها هُزم أمام فضوله، فأخذ قطعة من جبل عش الغراب في يده، وشم رائحتها، ثم حدق بها طويلًا، يقلّبها من اليمين إلى الشِمال، وعاد يشمها، وحملها بخوف إلى فمه، ثم أغمض عينيه بعزم وألقى بها داخله.

خيم الصمت! ثم تردد صوت قرقشة جبل عش الغراب في أرجاء الغرفة.

سألته بخوف:

- ما رأيك؟

ولكن ألوها ظل مغمض العينين والتزم الصمت التام.

- ماذا حدث؟

- للـ...

- هل أنت بخير؟

- للـ...

- هل أستدعي الإسعاف؟

- للـ... لذيذ جدًا.

- ماذا؟

- ما هذا؟ إنه فائق اللذة! هل حقًا سنُخفي هذا؟ خسارة فادحة!

- ألست أنت من اقترح أن نُخفيه؟

- أجل هذا ما قلتُه، ولكنني كنتُ مخطئًا، لم أتوقع أنها بهذا الطعم الرائع.

- ولكن إذا لم نجعلها تختفي ... سأموت، أليس كذلك؟

- صحيح.

- سأخفيها إذًا.

نظر إلي ألوها بحزن بالغ، وعقد حاجبيه، وتجعد جبينه:

- ... هل أنت جاد؟

فأجبته وأنا مشفق عليه:

- أجل ... أنا جاد.

فصرخ ألوها فجأة:

- حسنًا مرة أخيرة!

- ما ... ماذا؟

- أتسمح لي بقطعة أخرى؟

طلب مني ألوها بوجه خجول، وقد بدت الدموع في عينيه، لقد وقع في غرام الشوكولاتة دون شك.

اختلس ألوها النظر إليّ، وهو يضع قطعتين أو ثلاثًا من جبل عش الغراب، وأخذ يستطعمها مستغرقًا في ذلك وقتًا طويلًا، ثم قال أخيرًا:

- كما توقعت ... لا أستطيع إخفاءها.

- ماذا؟

- لا ينبغي بأي حال إخفاء شيء بهذا القدر من اللذة.

- لا تقل ذلك ...

هذا القرار لا يُتّخذ بهذا الاستخفاف، فقد تتوقف عليه حياتي.

لقد ظننتُ أنني تصالحتُ مع قدري، وقبلتُ الموت. ولكن حين ظهرت فرصة لإطالة حياتي، تعلقت بها، ولو كان ذلك بصفقة غير منطقية. كنتُ أتمنى أن أموت في سلام وهدوء بدون صراع عقيم إذا جاء أجلي. وكنتُ على وشك أن أفعل ذلك، ولكن حين اقترب الموت، اشتدت داخلي غريزة الإنسان الشريرة في التشبث بقشة (أو حتى بالشيطان).

- أعترض ... هذا ليس صحيحًا.

- ماذا؟ هل أصبحتَ ترى أن موتك خسارة؟

- هذا ... طبيعي! ثم هل من المناسب أن تقرر ما يختفي وما لا يختفي بناء على حبك أو كراهيتك؟

- مناسب جدًا، فأنا ... شيطان!

وعندما رآني ألوها مذهولًا من كلامه غير المنطقي، قال على الفور:

- انتظر! لا تبتئس هكذا! سأفكر لك في بديل على وجه السرعة!

قال ألوها ذلك ثم بدأ يدور بعينيه باحثًا في أركان الغرفة بسرعة مهولة. كان من يراه يدرك على الفور أنه في عجلة من أمره لإصلاح خطئه الفادح.

قلت في نفسي: يا له من شيطان ضعيف الشخصية! رن جرس الهاتف الجوال عندئذ، كان اتصالًا من مكتب البريد الذي أعمل به. نظرتُ إلى الساعة، فوجدتُ أن موعد ذهابي للعمل قد انقضى منذ زمن بعيد.

كان رئيس المكتب هو من يتصل، غاضبًا لتأخري عن العمل. ولكنه من جانب آخر، أبدى قلقه عليّ لأنني تركت العمل أمس مبكرًا، وذهبتُ إلى المستشفى بسبب سوء حالتي الصحية.

- أنا بخير، ولكني أشعر ببعض الضعف والإرهاق، ولذا أرجو منك منحي راحة لمدة أسبوع.

نجحت في الحصول على إجازة من العمل ثم أنهيتُ المكالمة.

- هذا ...

- ماذا؟

- هذا هو.

انتبهتُ إلى أن ألوها يشير إلى الهاتف الجوال.

- يبدو غير ضروري.

- ماذا؟ الهاتف؟

- أجل، لنتخلص منه.

ثم ضحك ألوها.

- ما رأيك؟ أُطيل حياتك يومًا مقابل الهاتف!

لو اختفت الهواتف من العالم ...

ماذا سأجني أنا؟ وماذا سأفقد؟

اقترب مني ألوها دون أن يعطي فرصة لقوة خيالي أن تعمل.

- ها ... ماذا تقرر؟

- ماذا؟

حاولت أن أفكر:

يوم إضافي في حياتي، أم الهاتف ... أيهما أختار؟

- إذا لم تُسرع سأُخفيه!

- انتـ ... انتظر قليلًا.

- عشرون ثانية ... عشر ثوانٍ، تسع، ثماني، سبع ...

- توقف عن عد الثواني وكأننا في مباراة شطرنج ياباني! لنتخلص منه! لا بأس، أوافق على إخفائه!

هكذا أجبت. لم أستطع الحكم على الأمر في اللحظة نفسها، ولكن لا وقت للوقوع في حيرة.

الحياة مقابل الهاتف؟ الأولوية للحياة بالتأكيد.

فقال الشيطان بلا مبالاة:

- سأخفيه إذًا!

- آ...

في تلك اللحظة تذكرتُ فجأة.

لم أتصل بأبي منذ مدة.

ولكن هذا أمر لا حيلة لي فيه. لم أتصل بأبي منذ ماتت أمي قبل أربع سنوات، ولم أقابله. أعرف أنه يواصل عمله في محل الساعاتي بالمدينة المجاورة ولا يبعد كثيرًا عن سكني، ولكنني لم أفكر قط أن أذهب لزيارته، ولا حتى مرة واحدة. أعترف أنه سيكون غريبًا ألا أتصل به وأنا على وشك وداع الدنيا!

بدأ ألوها يتحدث إليّ وهو يبتسم ابتسامة صفراء وقد بدا أنه عرف بما أفكر:

- أفهمك تمامًا، فالجميع يمرون بهذه الحال. حين يتقرر إخفاء شيء، يفكرون في أمور عدة، ولهذا السبب أقدم لك عرضًا إضافيًا.

- عرض؟

- أجل، وهو الحق في استخدام ما ستُخفيه مرة واحدة فقط قبل إخفائه.

- مفهوم.

- ولذا يمكنك استخدام الهاتف مرة واحدة فقط، للاتصال بأي أحد.

ولكن هذا العرض يجعلني أعاني أكثر.

فكرت أنه أبي لا محالة. ولكن عندما خطر ببالي وجه أبي، تذكرتُ ما حدث قبل أربع سنوات، ماذا عساي أن أقول له الآن بعد كل ما حدث؟ فرفضتُ الاتصال بأبي.

بمن أتصل إذًا؟ من يستحق آخر اتصال أجريه في حياتي؟

هل هو «ك» صديق الطفولة الحميم؟

صحيح أنه إنسان رائع وصديق حقيقي، نلتقي كثيرًا حين تسمح أوقاتنا، ولكننا لا نتحدث إلا في توافه الأمور منذ أن عرفته حتى اليوم.

وإذا اتصلتُ به وقلت له فجأة: «سأموت غدًا» أو «هذه آخر مكالمة، لأن الهواتف ستختفي من العالم» فمن المؤكد أنه سيظن أنني مجنون.

وسيُلحّ في السؤال: ما سبب هذا المزاح الغريب؟ لا أريد لآخر اتصالٍ لي أن ينتهي بهذه الصورة العبثية.

ولذا استبعدتُ الاتصال بالصديق «ك»!

من إذًا؟ زميلي الأقدم في العمل «و»؟

كان دائمًا يستمع إليّ برحابة صدر وطول بال، سواء أاستشرته في شأن العمل أم في شؤون الحب، كأنه أخي الأكبر في العمل.

ولكنه في العمل حاليًا، واتصالي به سيزعجه.

معنى ترددي في الاتصال به هذه اللحظة أنه ليس الشخص المناسب

لاستقبال آخر اتصال في حياتي. حين أستعرض ذكرياتي معه، لا أجد أننا تحدثنا يومًا في أمرٍ بالغ الأهمية. كنتُ في حالات السُكر، (وأنا رجل مقتصد جدًا، إذ يكفيني كوب واحد من البيرة لأسكر) أفتح له قلبي وأتحدث معه بأريحية. وقتها كنتُ أحسب أنني أستشيره، وهو يستشيرني في أمر جلل. ولكن، إن سُئلتُ عن حديث مصيري حقيقي تبادلناه، سأعجز عن الإجابة، كنا نظن أننا نتحدث في أعظم المسائل، بينما لم يُفصح أحدٌ منّا عن أي من أسراره للآخر.

آه، إنني في حال بائسة، ونهايتي المريرة تقترب.

مررت إصبعي على قائمة أرقام الهواتف في جوالي بسرعة، فكانت أسماء الأصدقاء تظهر ثم تتلاشى تباعًا. بدا لي كل منها رمزًا من الرموز وليس اسمًا. امتلأت قائمة الأرقام في جوالي بأناس لا حصر لهم، أسماء بدت كأنها تعنيني، ولكن، اتضح في النهاية أنهم ليسوا في محل اهتمامي حقًا.

فليس فيهم من يستحق أن أتصل به بالهاتف آخر اتصال لي في حياتي! كانت علاقاتي الإنسانية على هذه الدرجة من السطحية. وإنه لأمر محزن جدًا ألا أدركُ ذلك إلا في نهاية حياتي.

لم أرغب أن يلحظ ألوها مشاعري تلك، فخرجتُ من شقتي وجلست على الدرج.

قبضتُ على هاتفي بقوة، وعندها خطر ببالي أحد الأرقام.

إنه رقم هاتفها.

كنتُ قد نسيته تمامًا. ولكنه منقوشٌ في ذاكرتي.

ضغطتُ ببطء ذلك الرقم الذي لم يعد مسجلًا في هاتفي.

انتهت المكالمة في غضون دقائق، فعدتُ إلى شقتي لأجد ألوها والقط يلعبان معًا في مرح، بل كانا يتدحرجان على الأرض كأنهما في مباراة مصارعة حرة.

- واااههههها، توقف عن هذا، واااهووووو أقول لك توقف!

قررتُ لبعض الوقت مراقبة ألوها بصمت وقد نسي نفسه تمامًا في لعبه هذا.

مرت ثلاث دقائق.

- أ...

أخيرًا انتبه ألوها إلى نظراتي التي بلغت أقصى درجات البرود، فنهض وقد بدا عليه الخجل، ثم أدار وجهه نحوي، وتصنع الجدية، وبدأ يتحدث:

- هل انتهيت؟

لن تجدي محاولة تصنّع المهابة الآن!

ما هذا الشيطان الذي يعشق القطط؟!

بعد أن نقدته هكذا في سريرتي، هدأتُ أخيرًا، وأجبتُ بهدوء:

- أجل، انتهيت.

- حسنًا، سأجعله يختفي!

ابتسم ألوها في مرح وغمز لي (ولكن يبدو أنه غير قادر على الغمز بعين واحدة، فأغمض كلتا العينين).

وفي اللحظة ذاتها اختفى الجوال الذي كنتُ أحمله في يدي.

ثم سمعت صوتًا يقول:

- أراك غدًا.

فرفعتُ رأسي، ولكنني لم أجد الشيطان أمامي.

- مياو!

كأن القط افتقده، فدوّى مواؤه في الغرفة بأصداءَ موحشة.

لا بد من الذهاب لمقابلتها. مقابلة من اتصلت بها آخر اتصال.

وبينما كنتُ أفكر في ذلك، وجدتُ نفسي غارقًا في سبات عميق.

وهكذا بدأت أيامي السبعة العجيبة!

الثلاثاء
لو اختفت الهواتف من العالم!

هل تعرف القصة القديمة أنا قط لمؤلفها سوسيكي ناتسوميه؟ الأمر شبيه بتلك القصة، ولكن ليس تمامًا

أعيش مع قط.

لا يملك اسمًا بعد.

كلا، بل له اسم في الحقيقة.

واسم قطي كرنب.

ربما نسيتَ، لذا دعني أنعش ذاكرتك.

كنتُ حينها في الخامسة من عمري.

حين عادت أمي للبيت فجأة ومعها قط وليد التقطته من قارعة الطريق. كان يومًا شديد المطر.

هُرير ملقى في الشارع، فالتقطته أمي في طريق عودتها من السوبر ماركت، إذ كان موضوعًا في صندوق من الورق المقوّى للخس إنتاج

محافظة ناغانو. عندما رأت أمي المكتوب على الصندوق وهي تمسح الهرير بمنشفة، قالت:

- سنسمي هذا الهرير خس!

هل تتذكر؟

كانت أمي تكره الحيوانات على اختلاف أنواعها كراهية شديدة، حتى خس، لم تحسن الإمساك به في البداية، ولذا كنتُ أنا من تولّى رعاية الهرير حتى اعتادت وجوده.

بل إن أمي أصيبت بحساسية من القطط، وكانت تعطس باستمرار، ودموعها لا تتوقف، وأنفها لا ينفك يسيل، ومع ذلك لم تفكر لحظة واحدة في التخلي عن الهرير. استمرت ترعاه وهي تمسح وجهها المبتل من الدموع والمخاط بمنشفة وهي تقول:

- لن أتخلى عنه، فهو الذي اختارني.

وبعد مرور شهر، توقفت حساسية أمي من القطط فجأة ذات يوم. ربما كانت معجزة، وربما تكيف جسمها، ولكن أمي تحررت على أي حال من كل شيء فجأة؛ العطاس والدموع وسيلان الأنف.

ما زلتُ أتذكر حتى الآن أن خسًا ظل بجوار أمي في ذلك اليوم، ولم يبتعد عنها لحظة واحدة.

لطالما رددت أمي:

«لكي تحصل على شيء، لا بد من فقدان شيء بالمقابل!»

كانت تلك الجملة مسلّمة بدهية عندها. ثم تضيف أن البشر يحاولون الحصول على أشياء دون مقابل، وهذه هي السرقة بعينها! ففي لحظة حصول أحد على شيء، يفقده آخر، وسعادة إنسان قائمة على تعاسة آخر. ظلت أمي تخبرني مرارًا وتكرارًا بهذه الأمور التي تعدها قوانين الكون.

عاش خس أحد عشر عامًا. وفي النهاية، اكتشفنا ورمًا في جسده، وكان الوهن والهزال واضحين للعيان. وفي أواخر أيامه ظل نائمًا طوال الوقت، ثم مات في هدوء.

ومنذ ذلك اليوم، لم تعد أمي كما كانت. أمي التي كانت ثرثارة مرحة عاشقة للطبخ والغسيل، لم تعد تطبخ، لم تعد تغسل، لم تعد تفعل شيئًا سوى البكاء والانزواء في ركن بالبيت. لم تكن بيدي حيلة إلا أن أقوم أنا بغسل الملابس. أما الطعام، فكنت أصحب أمي إلى المطعم العائلي القريب، ونتناول هناك الوجبات الثلاث يوميًا.

هل تتذكر؟

أظننا تناولنا جميع الأطباق في قائمة المطعم في تلك الأيام.

وبعد مرور شهر آخر، عادت أمي فجأة حاملة هريرًا جديدًا، كأن شيئًا لم يكن. كان الهرير الجديد يشبه خس تمامًا، كرويّ الشكل، وبثلاثة ألوان رائعة؛ أبيض وأسود ورمادي، ولأنه يشبه خسًا شبهًا عظيمًا سميّناه كرنب[1].

(١) الكرنب (الملفوف) في اليابان يشبه الخس تمامًا من حيث الحجم والشكل الدائري/ المترجم.

كانت أمي تقول حين تنظر إليه متكوّرًا على نفسه:

- إنه يشبه خس حقًا.

عادت لأمي ابتسامتها بعد غياب شهر.

وعندما رأيتها بكيتُ.

أو لعلي لا أقول بكيت، بل سالت دموعي تلقائيًا. أدركت في تلك اللحظة كم كنت قلقًا من أن أمي ذهبت بعيدًا، بعيدًا جدًا، ولن تعود أبدًا.

ولكن قبل أربع سنوات، ذهبت أمي بالفعل إلى مكان بعيد.

قالت حينها وهي تبتسم ابتسامة خافتة:

- يا لسخرية الأقدار! أن أصاب بالمرض الذي أصاب خس.

ومثل خس، بدا الوهن والهزال واضحين للعيان، وفي أواخر أيامها ظلت نائمة طوال الوقت، ثم ماتت في هدوء.

قالت لي قبل رحيلها:

- أرجو أن تعتني بكرنب.

ولذلك، لم أكن أتخيل أن يحدث هذا.

أن أموت أنا قبل كرنب! من المؤكد أن أمي في صدمة الآن.

وربما غضبت عليَّ قائلة:

- لو كنتُ أعلم، لطلبتُ من شخص آخر الاعتناء بكرنب.

عندما انتبهتُ من نومي، كان الصباح قد طلع.

رأيتُ أمي في الحلم بعد غياب طويل.

اقترب كرنب مني وهو يموء: «مياو»، فقربتُ جسمه اللدن وحضنته، أشعر بفروته دافئة ولينة، فعلمتُ أنني ما زلتُ على قيد الحياة!

أجل، لقد حصلت على يوم إضافي في حياتي، مقابل اختفاء الهواتف من العالم.

تُرى، أين تبدأ الحقيقة وأين تنتهي في أحداث أمس؟ ربما كانت كلها أحداث حقيقية، ولكني لا أستبعد أيضًا أن تكون كلها أضغاث أحلام! يبدو أن الحمى التي استمرت طويلًا قد اختفت، ولا أشعر بصداع، ربما عقدتُ حقًا صفقة مع الشيطان.

لقد اختفت الهواتف من العالم.

فكرتُ بالأمر، فوجدت أن الهواتف كانت أكثر ما تمنيت اختفاءه، ولا سيما الهواتف الجوالة!

في الآونة الأخيرة، كنت أمضي يومي من أوله إلى آخره ممسكًا بالهاتف. تضاءلت قراءاتي للكتب، وانقطعت عن قراءة الصحف تمامًا، وتراكمت لدي الأفلام التي أودّ مشاهدتها.

في القطار، أنظر إلى الهاتف. أثناء مشاهدة الأفلام، أتابع الهاتف. بل إني في أثناء تناول الطعام، لا أترك الهاتف من يدي. وفي راحة الغداء، لا أتحمل الابتعاد عنه. حتى في وجود كرنب، كنت أعبث بالجوال بلا وعي، دون أن ألاعبه أو أكلّمه. وكرهت نفسي التي تحوّلت إلى أسيرة لمثل هذه الآلة.

خلال عشرين عامًا فقط من ظهوره، سيطر الجوال على البشر. شيء

وجوده مثل عدمه يسيطر على البشر خلال عشرين سنة فقط، ليصبح شيئًا لا يمكن الاستغناء عنه. ومع ميلاد الجوال، وُلد معه مرض القلق من عدم وجود الجوال.

ربما كان الأمر كذلك عند ظهور الخطابات، بل والإنترنت أيضًا. كلما أنتج الإنسان شيئًا، فقد شيئًا مقابله، إذا فكّرنا بهذه الطريقة، نستطيع أن نفهم جيدًا لمَ وافق الإله على مقترح الشيطان.

تود أن تعرف بمن أجريت آخر مكالمة هاتفية؟

لا أرغب في قول ذلك، ولكنني سأخبرك.

أول حب في حياتي، أول حبيبة عرفها قلبي.

أرجوك لا تصفني بالمخنث! ألا يتذكر أغلب الرجال أول حب لهم لحظة الموت؟ وهذا يعني أنني لستُ بدعًا من الرجال! بل أنا رجل عادي ولستُ استثناء من القاعدة العامة.

نهضتُ ببطء تحت أشعة الشمس الصباحية، وأعددتُ وجبة الإفطار وأنا أسمع الإذاعة. حضّرت القهوة، وأعددت البيض المقلي، وشريحة واحدة من الخبز، وقطعت بضع شرائح من الطماطم، ووضعتها في طبق. وبعد أن فرغتُ من تناول إفطاري، قرأت كتابًا بتروٍّ، وأنا أرتشف كوبًا ثانيًا من القهوة. الحياة بدون هاتف رائعة! شعرتُ أن الزمن استطال فجأة وأن الفضاء اتسع.

اقترب وقت الظهيرة.

أغلقتُ الكتاب، وتوجهت إلى الحمام، فأخذتُ حمامًا ساخنًا وارتديتُ الملابس التي طويتها أمس بعناية، (ثيابي ذات اللونين الأبيض

والأسود كما ذكرتُ سابقًا)، ثم خرجتُ من البيت. إنني في طريقي الآن لمقابلتها.

ذهبتُ أولًا إلى محل الحلاقة المفضل لدي. أدرك تمامًا ما في الأمر من مفارقة هزلية: أن أذهب لحلاقة شعري بينما قد أواجه الموت بعدها مباشرة. ومع ذلك، أرجو ألا تسخر من مشاعر الرجولة الكامنة في داخلي، تلك التي تجعلني أرغب في أن تراني حبيبتي السابقة في أبهى صورة.

انتهيتُ من حلاقة شعري، وذهبتُ إلى محل النظارات المقابل لمحل الحلاق واشتريت نظارة جديدة، ثم توجهت إلى المحطة القريبة، وما أن وصلتُ حتى أتى الترام الأخضر، فقفزت إليه على عجل.

كان الترام مكتظًا بالركاب، ربما لأنه نهار يوم من أيام الأسبوع، يوم عمل وليس عطلة.

في الظروف العادية، يكون كل من يجلس على مقعد غارقًا في شاشة هاتفه عادة، غير أن الحال اليوم بدت مختلفة؛ فكان كل راكبٍ يستمتع بوقته على طريقته الخاصة: فمنهم من يقرأ كتابًا، ومن يستمع إلى موسيقى، وآخرون يراقبون المناظر التي تمرّ بهم من نوافذ الترام. وقد لاحظتُ أن وجوههم بدت بشوشة على نحو ما.

لماذا تتخذ ملامح الإنسان ذلك الطابع الحاد حين ينظر إلى هاتفه؟ أوحت إليّ هذه الأجواء السلمية داخل الترام بإحساسٍ غريب، وكأنني لم أُمنح يومًا إضافيًا من الحياة وحسب، بل ساهمت أيضًا في إحداث أمرٍ رائع لهذا العالم.

ولكن، هل اختفت الهواتف حقًا من هذا العالم؟

عندما نظرتُ من نافذة الترام نحو لوحة محل السوبا القابع عند زاوية السوق (ذاك المحل الذي أعرف أن كرنبًا يتسلل من البيت إليه خفية، حيث يُطعمه صاحب المحل رقائق السمك المجفف) وجدت رقم الهاتف مكتوبًا عليها بلا تغيير.

وعندما أدرت عيني داخل الترام، رأيتُ دعايات شركات الهواتف الجوالة معلقة في تزاحم محموم. ومع ذلك، لا أحد يحدق بهاتفه داخل العربة. تُرى ما حقيقة الأمر؟

فجأة، تبادرت إلى ذهني إحدى قصص دورائمون، بالتحديد المجلد الرابع بعنوان حشرة الزعوقة، وتذكرتُ الأداة السرية التي يملكها دورائمون واسمها «قبعة الحصى».

كانت القصة على النحو التالي:

يلجأ نوبيتا نوبي الذي يغضب والداه عليه دائمًا، إلى دورائمون باكيًا ويقول له: «أتمنى ألا يهتم بي أحد على الإطلاق»، «ليت الجميع يتركوني وشأني» وهنا أخرج دورائمون من جيب البعد الرابع تلك الأداة السحرية التي تُسمى «قبعة الحصى».

قال له دورائمون: «من يعتمر هذه القبعة، يصبح وجوده مثل وجود حصى على قارعة الطريق». أي أنه موجود في مكانه بالتأكيد، ويمكن رؤيته بالعين، ولكن لا يهتم لأمره أحد ولا يعيره بالًا.

فرح نوبيتا فرحًا شديدًا واعتمر تلك القبعة، ثم استمتع لبعض الوقت بحالة الإهمال تلك. ولكن كما هو متوقع بدأ تدريجيًّا يشعر

بالوحدة (هذا الجزء من القصة يليق تمامًا بشخصية نوبيتا) ولكنه لسبب مجهول لا يستطيع خلع القبعة. وفي النهاية يبكي نوبيتا (كما هو متوقع ممن هو على شاكلته)، فتنخلع القبعة من تلقاء نفسها بعد أن بللتها الدموع، فينتبه الأب والأم إليه، وتنتهي القصة بقول نوبيتا: «يا لها من سعادة أن يهتمّ بي أحد». أتذكر أن هذا هو محتوى القصة.

انحرفتُ كثيرًا عن الحديث الأصلي، ولكن، خمّنت أن المنظومة التي بناها ألوها هي نفسها فكرة «قبعة الحصى». بمعنى أن الهواتف ذاتها موجودة كما هي، وأنها على الأرجح لم تختفِ من العالم. ولكن لا أحد ينتبه إليها، ولا أحد يهتم بها، كنوع من التنويم المغناطيسي الجماعي، بالضبط كما فعل دورائمون تمامًا.

أغلب الظن أن اختفاء الهواتف سيكون تدريجيًا، سيمتد سنوات، فتظل في أماكنها دون أن يلاحظها أحد، ثم تتلاشى كليًا، كما تختفي حصى الطريق، دون أن يلتفت إليها أحد.

وحين فكرت في ذلك، تساءلت: ترى، ما الذي أخفاه الأشخاص المئة والسبعة الذين التقاهم ألوها حتى الآن؟ لا بد أن من بينها أشياء اختفت فعلًا، لكننا لم نلاحظ غيابها، تمامًا كما يختفي فجأة كوبنا المفضل أو الجورب الجديد الذي اشتريناه بالأمس. ثم لا نعثر عليه مهما بحثنا. ربما يكون هذا الاختفاء المفاجئ لأشياء لا ينبغي لها أن تختفي، ظاهرة تحدث باستمرار دون أن ننتبه إليها.

صعد الترام الأخضر تلّتين على التوالي حتى وصل إلى البلدة المجاورة.

نزلتُ منه في محطة تطل على ساحة فسيحة، وتوجهتُ إلى المكان الذي اتفقنا على اللقاء فيه.

برج الساعة القائم في وسط الساحة. كان هذا هو مكاننا المفضل الذي اعتدنا اللقاء عنده في مرحلة الدراسة الجامعية.

يحيط بالبرج طريق مخصص للسيارات، وعلى جانبيه مكتبة ومطعم ومحل خردوات.

وصلتُ قبل الموعد بخمس عشرة دقيقة. وفي المعتاد، كنتُ سأقضي الوقت في النظر إلى هاتفي الجوال، غير أنني هذه المرة أخرجت كتابًا صغير الحجم من جيبي، وقررت انتظارها وأنا أقرأه.

حان الموعد، ولكنها لم تظهر.

مرت نصف ساعة، ولكنها لم تأتِ بعد.

يا لها من ورطة!

من دون وعي، تحسستُ جيبي بحثًا عن الهاتف.

غير موجود.

أكيد! فقد جعلتُه يختفي من العالم.

هل أخطأتُ المكان؟ أم تُراني أخطأت الموعد؟ لقد كلمتها في أثناء صفقتي مع الشيطان، وكانت أعصابي متوترة، واحتمال الخطأ وارد جدًا.

- أمر غير مريح!

قالها لساني دون وعي. على الرُغم من تحرري من الهاتف، إلا أنني

مع ذلك في حاجة إليه. لم يكن في وسعي فعل شيء، فقررت الانتظار أسفل برج الساعة وأنا أرتجف من البرد.

بالمناسبة، كنتُ في الماضي كثيرًا ما أردد عبارة «أمر غير مريح»، خلال علاقتي بها أيام الجامعة.

كانت قد جاءت من مدينة كبرى للدراسة في جامعتنا الواقعة في البلدة الريفية.

طالبة في قسم الفلسفة.

في بيتها الذي تقيم فيه بمفردها مروحة، ومدفأة كهربائية صغيرة، وأكوام من الكتب.

عندما كان العالم بأسره يتبادل الأحاديث عبر الهواتف الجوالة، لم تملك واحدًا، بل لم تسعَ حتى إلى تركيب هاتف أرضي في شقتها.

كانت لا تتصل بي إلا من الهواتف العمومية.

وحين كانت تظهر عبارة «هاتف عمومي» على شاشة هاتفي الجوال، تجتاحني سعادة غامرة، ينتفض لها جسدي فرحًا، فأردّ على المكالمة دون تردد، وأتحدث معها حتى لو كنت في محاضرة أو أثناء عملي بدوام جزئي.

أما الكارثة الحقيقية، فكانت حين أفوّت مكالمتها. لم يكن في وسعي إلا أن أحدّق حانقًا بسجل المكالمات الواردة، عاجزًا عن الاتصال بها، فمصدر الرقم هاتف عموميّ، لا يمكن الوصول إليه مجددًا. وكثيرًا ما راودني كابوس متكرر في تلك الأيام، أرى فيه كشك هاتف عمومي خاليًا يدق جرسه بلا توقف.

ومع مرور الأيام، قررت أن أنام كل ليلة محتضنًا هاتفي الجوال لكيلا أفوّت أي اتصال منها. ذكرتني حرارة الجوال وأنا أحتضنه بدفء جسدها، فكنت أغط على الفور في سبات عميق.

مرت ستة أشهر على علاقتي بها.

فقررتْ أن تركّب هاتفًا أرضيًا في بيتها، ربما استجابة لمحاولاتي المتواصلة لإقناعها بذلك.

فقالت لي بشيء من الفخر:

- حصلت على هذا الهاتف الأسود مجانًا!

وأخذتْ تُدير قرصه أمامي.

اتصلتُ بذلك الهاتف الأسود مرارًا وتكرارًا، حتى حفظت يداي الرقم، كأنه نُقش في ذاكرتي بإزميل.

أمر يثير العجب! فأنا لا أحفظ في ذاكرتي رقمًا واحدًا من الأرقام الكثيرة المخزنة في هاتفي الجوال. لا رقم صديق ولا رقم زميل، بل حتى رقم أمي أو أبي. اعتمدتُ بالكامل على هاتفي الجوال في حفظ أواصري العائلية وعلاقاتي. وحين فكرتُ في هذا، بدأت أشعر أن شيئًا مرعبًا يحدث.

جربتُ أمس أن أتذكر الأرقام المحفوظة في ذاكرتي، فورد رقمها إلى ذهني تلقائيًا. وأردتُ أن أختبر آخر صلة حقيقية تحتفظ بها ذاكرتي.

لقد مرت بالفعل سبع سنوات منذ افترقنا. ولكني أود أن أطرح عليها سؤالًا مهما كلفني الأمر.

ردت على اتصالي، وقالت إنها تعمل في دار عرض سينمائية محلية، وإن غدًا يصادف عطلتها الأسبوعية. شعرت بالامتنان لتلك الصدفة المحضة، واتفقنا على اللقاء.

- إذًا، نلتقي غدًا!

قالت ذلك وأنهت المكالمة، وكان صوتها كما عهدته في أيام الجامعة، كأن الزمن عاد بي إلى الوراء سبع سنوات فجأة.

انتظرتها ساعة كاملة تحت برج الساعة، وبرودة الطقس تتسلل إلى قدمي، حتى أحسست أنهما التحمتا بأحجار الطريق. ثم جاءت أخيرًا تركض نحوي بخطوات سريعة.

لم تتغير عما كانت عليه قبل سبع سنوات. لم يتغير ذوقها في الثياب، ولا طريقة جريها. الشيء الوحيد الذي تغير فيها، هو شعرها الذي كان يصل إلى كتفيها، قصته وبات قصيرًا.

عندما رأت وجهي الشاحب من البرد، قالت لي بقلق واضح:

- ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟

لم تقل تحية معتادة مثل: «كيف حالك؟» أو «مر وقت طويل» إلى آخره، بل أول ما قالته هو: «هل أنت بخير؟» يا له من موقف حزين! ومن حديثنا، عرفت أنني أخطأت في توقيت الموعد ساعة كاملة.

وعندما قلت: «أمر غير مريح» أجابت ضاحكة: «حقًا؟»

في المقهى الذي دخلناه معًا أخبرتها قائلًا:

- ربما أموت قريبًا.

التزمتْ الصمت مدة وهي تشرب الكاكاو ببطء، ثم التفتت نحوي وقالت:

- إمم، هل أنت جاد؟

صُدمتُ من رد فعلها المستهتر جدًا.

تخيلت أن تجيبني بواحدة من ثلاث إجابات:

العادية: «لماذا؟ ماذا حدث؟»

الجيدة: «إذا كان في وسعي فعل شيء، فأخبرني من فضلك. سأفعل أي شيء»

الرائعة: إهئ إهئ إهئ! (أن تنهار باكية في صمت)

لسبب لا أعرفه، كان رد فعلها أقل من العادي.

وتذكرتُ أنني كنتُ في منتهى الهدوء عندما بُلّغت بالخبر، فمن الطبيعي جدًا ألا يستغرب الآخرون، أو يُصابوا بخيبة أمل ويبكوا حزنًا تجاه حدثٍ بدا لي أنا نفسي منافيًا للواقع.

تُرى لماذا يتوقع الإنسان من الآخرين فعل ما لا يستطيع هو فعله؟ هل كنتُ أريد منها أن تدهش؟ أم كنتُ أريد منها أن تحزن؟

- ولكن لماذا فجأة؟

- بسبب السرطان ...

- أحقًا؟ أمر مروع! ولكنك لا تبدو حزينًا، تُرى هل هذا هو رد الفعل الطبيعي عند اقتراب الموت؟

لم أستطع بأي حال أن أقول لها: أجل، فالشيطان أطال في عمري.

فلا يود أي رجل في هذا العالم أن تظن حبيبته الأولى أنه فقد عقله قبل موته، بالإضافة إلى أنني لم آتِ للحديث عن هذا.

- ثم...

- ماذا؟

- إذا عرف الإنسان أن موته وشيك، تبدأ الأسئلة تتزاحم في داخله، ويريد أن يتحقق من حياته.

- إممم، أحقًا هذا؟

- أعني التساؤل عن معنى حياته التي عاشها.

- هل يهتم الإنسان بهذا؟

- يهتم بالتأكيد. ولهذا أريد أن أسمع منك بعض ذكرياتنا معًا، ما تحتفظين به في ذاكرتك، مهما كان تافهًا، لا أمانع.

قلت ذلك بسرعة، ثم شربت قهوتي التي بردت دفعة واحدة.

بدأت تفكر وهي تُتمتم قائلة:

- إن كان الأمر كذلك، ليتك أبلغتني قبل أن نلتقي.

ولأنني صعب عليَّ الوجود أمامها وهي تفكر، ذهبت لدورة المياه وقضيت حاجتي ببطء ثم عدت وجلست على مقعدي.

- عدد مرات ذهابك لدورة المياه.

- ماذا؟!

- كان كثيرًا.

كان هذا أول ما نطقتْ به.

- وطويلًا أيضًا، رغم أنك رجل.

ما هذا؟! هل هكذا يبدأ الحديث فجأة؟

بل أنني لم أسمع منها هذه الشكوى من قبل ولو مرة واحدة! ولكن عندما فكرتُ جيدًا، تذكرت أنني أذهب إلى دورة المياه كثيرًا، وأنني أقضي هناك وقتًا طويلًا أيضًا. أتذكر نفسي في دورة المياه غارقًا في تفكير عميق فأذهب إلى عالم آخر، وأقضي حاجتي في بطء شديد ثم أغسل يدي. أما هي فأذكر أنها لم تحتج إلى دورة المياه إلا نادرًا، وإذا ذهب كلانا إلى دورة المياه في وقت واحد، كانت دائمًا تخرج قبلي وتنتظرني.

- ملاحظة أخرى، كنتَ تكثر من التنهُّد.. وكنتُ أتساءل دائمًا إلى أي حدّ تعاني في حياتك!

- هل ... هذا حقيقي؟

- ولا تشرب الكحول مطلقًا!

- أنا آسف ...

- تذكرتُ، تذكرتُ. عندما نذهب إلى مطعم، كنتَ تحتار كثيرًا في اختيار وجبتك، رغم أنك رجل! وفي النهاية تطلب الوجبة نفسها: أرز بالكاري. وعندما أبدي استيائي من ذلك، تغدو نكدًا، وكنتَ تستغرق وقتًا طويلًا حقًا للتغلب على ذلك.

قالتْ هذا كله دفعة واحدة، وبدت راضية جدًا عن نفسها، وعادت إلى شرب الكاكاو ببطء.

آه، هل هذا هو آخر حديث أسمعه قبل موتي؟ هل هذا معنى حياتي؟ هل هذه قيمتي؟

بدا الأمر قسوة مفرطة منها. هل هذا كل ما تتذكره عن الرجل الذي أحبته يومًا؟ كلا هذه ليست قسوة. بل هذا يوضح أنها، مثل كل بنات جنسها في هذا المجتمع، تتعامل بمنتهى الصرامة والجفاف تجاه حبيبها السابق. ظللتُ أقنع نفسي بأن هذا هو الأمر بالتأكيد.

- ثمة أمر آخر، كنت تتحدث كثيرًا جدًا في الهاتف، ولكنك تتكلم قليلًا حين نلتقي وجهًا لوجه.

ربما كانت محقة في هذا بالفعل.

وقتها كنا نواصل الحديث في الهاتف ساعتين أو ثلاث ساعات بلا انقطاع، رغم أن المسافة التي تفصل بين مسكنينا لا تستغرق ثلاثين دقيقة سيرًا على الأقدام. وحدث مرة أن تحدثنا على الهاتف ثماني ساعات متواصلة، وضحكنا معًا في النهاية ونحن نقول: «أما كان الأفضل أن نلتقي؟»

ولكن الحقيقة أن هذا غير صحيح، لأننا لا نجد ما نقوله عندما نلتقي. وفي رأيي، أن الحديث في الهاتف ونحن متباعدان مكانيًا، جعلنا نحس بتقاربنا العاطفي أكثر. وأتاح هذا لنا مجالًا أوسع للحديث، وأشعل الحماس والتنوع في أحاديثنا العفوية.

ومع ذلك، أشعر أن تقييمها لي مفرط في سلبيته. إنه التقييم النهائي لحياتي كلها، فلا مانع من وجود بعض المجاملة والهدايا المجانية! ورغم أن قلبي كاد أن ينفطر، إلا أنني سألتها بجدية:

- ولكن، هذا غريب، رغم كل هذه العيوب، بقيتِ معي ثلاثة أعوام ونصف العام!

- غريب حقًا. ولكن ...

- ولكن؟

- السبب أنني كنتُ أحب أحاديثك الهاتفية. كنتُ أحب أن أسمعك وأنت تحكي لي عن موسيقى عادية أو رواية ساذجة، كأن وجه العالم كله تغير.

- وأنا أيضًا، كنتُ حين أسمعك تحكين عن فيلم ما، أشعر أن العالم قد تغير فعلًا.

كسر هذا الجليد بيننا ثم واصلنا التحدث معًا في أمور كثيرة وغير مترابطة.

عن زميلنا، الذي كان أنحف طالب في الدفعة، وصار الآن وحشًا عملاقًا يبلغ وزنه مئة وعشرين كيلوجرامًا. وعن زميلتنا التي كانت أبعد البنات عن الجاذبية، وتزوجتْ فور تخرجها، وباتت أمًّا لأربعة أطفال.

أخذتنا الأحاديث، وانتبهنا إلى أن الشمس بدأت تغرب خارج المقهى، فقررتُ أن أوصلها إلى بيتها.

كان بيتها هو نفسه دار السينما التي تعمل فيها. قالت لي إنها تسكن في شقة تقع أعلى دار العرض.

فقلت لها:

- أخيرًا تزوجت السينما؟

فأجابت ضاحكة:

- توقف عن هذا المزاح السخيف.

وبينما كنا نسير ببطء فوق الطريق المعبد بالأحجار سألتني:

- هل والدك بخير؟

- إممم ... لا أعلم.

- لم تتصالح معه بعد ...

- لم ألتقِ به منذ وفاة أمي.

- لطالما قالت والدتك إنها تأمل أن تتصالحا.

- أعتقد أننا ... غير قادرين على تحقيق أملها!

أتذكر أنني أخذتُها إلى البيت لتتعرف على والديّ بعد مرور ستة أشهر على علاقتنا.

فلم يكلف أبي نفسه عناء الخروج من محله لإلقاء التحية عليها، ولكن أمي أعجبت بها إعجابًا شديدًا. فقدمت لها حلوى، ثم قدمت لها وجبة طعام، ثم حلوى مرة أخرى، ولم تدعها ترحل بسهولة.

قالت لها أمي:

- في الحقيقة، لطالما تمنيت أن أرزق بابنة.

لم يكن لأمي إخوة سوى الذكور فقط، وحتى خس وكرنب كلاهما ذكر.

وبدأت أمي تدعوها دون علمي، وكانتا تلتقيان كثيرًا بدوني.

ابتسمتْ وقالت:

- كانت والدتك إنسانة رائعة حقًا.

- حقًا؟

- كانت تتصل بي لتقول لي: «افتتح مطعم جديد»، تدعوني لنذهب إليه معًا. وعلمتني أن أطبخ أكلات كثيرة، وغير ذلك كنا نذهب إلى مصفف الشعر معًا.

- مصفف الشعر؟! لم أسمع بذلك قط!

ماتت أمي بعد انفصالنا بثلاث سنوات تقريبًا.

حين حضرتْ الجنازة، كانت تبكي بحرقة وجسدها ينتفض من الحزن، وظلت تحتضن كرنب حتى انتهاء الجنازة. لم تكن قادرة على رؤيته في حالة انهيار شنيعة، يجوب المكان هائمًا على وجهه.

حتى بعد انفصالنا، كانت أمي تقول لي في كل مناسبة: «كانت تلك الفتاة تناسبك» وعندما رأيتها تحتضن كرنب، فهمت مقصد أمي من قولها هذا.

- هل كرنب بخير؟

- في صحة جيدة.

- ولكن ماذا سيحدث؟ من سيتولى رعايته؟

- سأبحث عمّن يرعاه.

- حقًا؟ إن لم تجد، أخبرني.

- أشكرك.

وبينما كنا نقطع الطريق المنحدر الطويل، ظهرت لنا أضواء دار السينما في الأفق. لسبب ما، بدت لي تلك الدار التي أراها بعد غياب طويل أصغر حجمًا مما كانت عليه. كانت في الماضي أكبر وأزهى ألوانًا.

وراودني الإحساس ذاته تجاه برج الساعة. لم تتغير معالم البلدة كثيرًا عمّا كانت عليه في آخر زيارة لي: مكتب العقارات، والمطعم، ومركز التقوية الدراسية، ومحل الزهور، كلها على حالها، باستثناء السوبرماركت الذي طرأت عليه بعض التجديدات. أحسست وأنا أنظر إلى البلدة التي عرفتها في الماضي أنها قد تقلّصت فجأة، كأنها تحوّلت إلى مجسم مصغّر للمدينة، أشبه بالمنمنمات. فهل البلدة هي التي صغرت فعلًا؟ أم أن إدراكي هو الذي نما واتسع؟ أقنعتُ نفسي، على الأرجح، أن الأمر يعود إلى كليهما.

- أريد أن أسألكِ.

- ماذا؟

- لماذا انفصلنا في رأيك؟

- ما هذا السؤال المفاجئ؟

- من المؤكد أننا انفصلنا لسبب، ولكنني لا أستطيع تذكره مهما حاولت.

في الواقع كانت تلك نيتي، أن أسألها هذا السؤال في نهاية لقائنا.

لماذا انفصلنا؟!

إذا قيل إنه الملل، فلن أجادل كثيرًا... ومع ذلك، لم أستطع استحضار أي سبب جوهري مهما أجهدتُ فكري.

بعد صمتٍ امتدّ برهة، التفتت نحوي فجأة وسألتني:

- حسنًا هل تتذكر؟

- ماذا؟

- ما أكلتي المفضلة؟

سؤال مفاجئ. مرت خمس عشرة ثانية.

- إمم. ربيان مقلي؟

- خطأ. تمبورا الذرة المقلية.

فرق بسيط. اختلاف في نوع الطعام المقلي. ولكن، كيف انقلب مسار الحديث على هذا النحو؟

- ما حيواني المفضل؟

- ماذا؟ إمم ...

- القرد الياباني.

ولم تترك لي فرصة الموافقة على كلامها وقول هو ذاك، هو ذاك.

- حسنًا، ما أحب مشروب إليّ؟

ما هو؟ لا أتذكر مطلقًا.

- إمم ... آسف، لا أتذكر، أُعلن استسلامي.

- الكاكاو. ألم أشربه أمامك من لحظات؟ هل نسيت ذلك؟

هذا حقيقي، تذكرت الآن، إنها تحب تمبورا الذرة المقلية، لا بد أن تطلبها عندما يحين موسمها، وكانت تؤكد لي دائمًا أنها أحب طعام في العالم إلى قلبها. وعندما كنا نزور حديقة الحيوان، لا تفارق قفص القرود التي يتجمع عندها القرد الياباني، وكانت تشرب الكاكاو الساخن صيفًا وشتاء.

لم أنسَ ذلك تمامًا، ولكنني لم أتذكّره. من المؤكد أن قلبي كان يحاول جاهدًا سجن ذكرياتي معها بوضع غطاء ثقيل عليها.

سمعتُ ذات مرة، أنّ الإنسان لا يستطيع حفظ شيء جديد في ذاكرته دون أن ينسى شيئًا آخر في المقابل، وأن النسيان ضروري من أجل التطور والتقدم. تُرى هل هذا القول صحيح؟ الآن، وأنا أواجه لحظة الموت، لا أتذكر إلا ذكريات تافهة لا حصر لها.

- نسيتَ أليس كذلك؟ لكنني توقعتُ ذلك، والسبب الذي افترقنا من أجله، كان بالقدر نفسه من التفاهة، لا يستحق حتى أن نتذكره.

- هل هذا صحيح؟

- إذا أردت أن تعرف حقًا، ربما كانت بداية النهاية في الرحلة التي سبقت تخرجنا.

- ... بوينس آيرس؟ كم أشتاق لتلك الذكرى!

في أيام علاقتنا، لم نغادر مدينتنا قط. كانت مواعدتنا كلعبة بنك الحظ، ندور ونلف داخل حدود البلدة فقط، ولم نشعر بالملل قطّ.

كنا نلتقي في مكتبة الجامعة بعد انتهاء المحاضرات، فنذهب معًا إلى السينما لمشاهدة فيلم، أو نجلس في المقهى المفضل لدينا لنظل نتحدث في استرخاء، ثم نمارس الجنس في شقتها. وأحيانًا كانت تعد طعامًا ونصعد بالتلفريك إلى مكان يطل على البلدة كاملة، لنتناول الطعام في مشهد بديع. كان ذلك يكفينا. لو فكرنا في الأمر الآن، لربما بدا غير معقول، ولكنني كنت أشعر أن حجم البلدة يتناغم تمامًا مع حجم قلبينا آنذاك.

دامت علاقتنا ثلاث سنوات ونصف تقريبًا. ولم نسافر فيها خارج اليابان، سوى مرة واحدة فقط.

إلى بوينس آيرس عاصمة الأرجنتين.

كانت تلك الرحلة الأولى والأخيرة خارج البلاد.

في ذلك الوقت، كنا مهووسيْن بفيلم لمخرج تايواني تدور أحداثه في بوينس آيرس، فقررنا أن نسافر إليها في آخر عطلة دراسية طويلة لنا بالجامعة.

حجزنا على خطوط طيران أمريكية رخيصة السعر (كان البرد داخلها لا يطاق ووجباتها تشبه الصلصال)، توقفنا في ترانزيت أكثر من مرة، ووصلنا بوينس آيرس بعد ست وعشرين ساعة من السفر المضني.

انتقلنا من مطار إيزيزا الدولي إلى مركز المدينة في سيارة أجرة غريبة الأطوار. وما أن دخلنا غرفتنا حتى ارتمينا من التعب على السرير. ولم نستطع النوم، رغم التعب والإرهاق، فساعتنا البيولوجية ما زالت تتبع توقيت اليابان ولا تسمح لنا بالنوم. إننا في النصف الآخر من الكرة الأرضية.

تقبلنا الواقع وتركنا السرير وقررنا الخروج واستكشاف المدينة.

تتردد أنغام الأكورديون في المدينة، والناس يرقصون التانغو في الطرقات المعبدة بالأحجار. غرقنا في تأمل مدينة بوينس آيرس وسمائها التي تقترب من رؤوسنا، ثم توجهنا إلى مقابر ريكوليتا، وهمنا على وجوهنا بين القبور التي تشبه المتاهة، حتى عثرنا أخيرًا على قبر إيفا

بيرون، مقصدنا من الزيارة. ثم تناولنا الغداء في مقهى، ونحن نستمع إلى أنغام التانغو، يعزفها عازف غيتار عجوز أشيب الشعر.

وفي المساء، ركبنا الباص وتوجهنا إلى بوكا. في ثلاثين دقيقة اخترق الباص شوارع المدينة الضيقة، واستطعنا رؤية المباني الملونة بألوان زاهية ومتنوعة. الأزرق السماوي، والأصفر الخردلي، والأخضر الزمردي، والوردي السالموني، تتراص في مساحات ضيقة، بيوت سكنية مصنوعة من الخشب وملونة بألوان الباستيل. تجولنا في المدينة التي تشبه اللعبة، وهي تتلألأ تحت أشعة الغروب. وفي الليل توجهنا إلى مطعم «لا فينتانا» المتخصص في رقصات التانغو في حي سان تيلمو. أخذتنا حُمّى التانغو إلى عالم مواز مختلف عن العالم الذي نعرفه.

طفنا شوارع بوينس آيرس في بضعة أيام، كأننا مصابان بالحمى.

كان توم يقيم في نفس الفندق الذي نزلنا فيه.

ورغم أنّ اسمه توم، فإنه ياباني خالص.

شاب في التاسعة والعشرين من عمره، ترك وظيفته في مجال الإعلانات، وانطلق في سفر حول الكرة الأرضية.

وفي الليل نذهب مع توم إلى سوبر ماركت قريب لنشتري نبيذًا، ولحمًا، وجبنًا، ونجلس في المطبخ المشترك، نأكل ونشرب ونتبادل الحديث حتى مطلع الفجر.

روى لنا توم عن مغامراته في العالم: أبقار الهند المتغطرسة التي لا تبالي بالبشر، رهبان التبت من الأطفال، المسجد الأزرق في إسطنبول، الليل الأبيض في هلسنكي، المحيط الممتد بلا نهاية في لشبونة.

كان توم يشرب الكثير من الكحول ويغرق في سكر بيّن، ولكنه يواصل الحديث، كأنه يعيش في حلم.

- إن العالم مليء بالمآسي، لكنه مليء بالجمال بقدر مماثل.

لم نتخيل قط ما يحدثنا عنه، ونحن نطوف في هذه المدينة الصغيرة. استمع توم لأحاديثنا نحن أيضًا، وهو يبكي حينًا ويضحك حينًا آخر. واصلنا نحن الثلاثة أحاديث لا نهاية لها على الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

وذات يومٍ، عند اقتراب موعد عودتنا إلى اليابان، لم يعد توم إلى الفندق.

ظللنا أنا وهي نشرب النبيذ معًا وننتظره، ولكنه لم يرجع.

وفي صباح اليوم التالي علمنا أن توم مات.

ذهب لرؤية تمثال المسيح الواقع على الحدود بين الأرجنتين وتشيلي، ولكن الحافلة التي يركبها سقطت من فوق جرف شاهق.

كان وقع الخبر علينا كالحلم، ولم نستطع أن نراه حقيقة واقعة، بل شعرنا أن توم سيدخل علينا المطبخ في أي وقت وفي يده زجاجة نبيذ قائلًا لنا: «هيا نشرب معًا». ولكنه لم يعد إلى الأبد. لقد قضينا اليوم كله لا نشعر بالواقع، كأننا فوق السحاب.

وفي آخر يوم لنا في الرحلة، ذهبنا إلى شلالات إجوازو.

كانت تبعد عن المطار ثلاثين دقيقة بالسيارة، ثم سرنا ساعتين على الأقدام، إلى أن وصلنا إلى «حنجرة الشيطان»، أعنف شلالات العالم، وهي التي ظهرت في أحد مشاهد الفيلم التايواني.

كانت المياه تنحدر من هناك إلى الأسفل في اندفاع مروّع.

جعلني المشهد أشعر بعنفوان الطبيعة.

وعندما انتبهتُ، وجدت حبيبتي تبكي بحرقة إلى جواري.

كان بكاؤها عاليًا، إلا أنها مهما صرخت وبكت، تلاشى صوتها وسط هدير الشلالات المرعب. مكتبة سُر مَن قرأ

في تلك اللحظة، أدركتُ الحقيقة بكل قسوتها: لقد مات توم فعلًا. ولن نستطيع أن نراه من جديد، ولا أن نشاركه الحديث في الليل الطويل، ولا أن نجلس إليه نرتشف الشراب أو نتقاسم الطعام في دفء الصحبة. لقد كان ذلك، لي ولها على السواء، أول «موتٍ حقيقيّ» نشعر بلسعته تمزق أرواحنا، منذ أن أبصرت أعيننا نور الحياة.

لذا، ظلّت تبكي بلا انقطاع، في ذلك الموضع الذي تتجلّى فيه هشاشة الإنسان وعجزه أمام جبروت الطبيعة.

أما أنا، فلم يكن بوسعي سوى التحديق، مذهولًا، بفقاعات المياه البيضاء وهي تندفع نحو الأعماق، تبتلعها الأرض بصمتٍ مهيب.

عدتُ معها من بوينس آيرس إلى اليابان، مستغرقين في رحلة العودة الزمن نفسه الذي استغرقناه في الذهاب.

ست وعشرون ساعة من الصمت المطلق، لم نتبادل خلالها كلمة واحدة.

أتُرانا تحدثنا في بوينس آيرس أكثر مما ينبغي؟ كلا، المسألة لم تكن كذلك. الأمر ببساطة أننا، في تلك اللحظة، عجزنا عن العثور على

الكلمات التي تليق بما نحمله من مشاعر. لم يكن الصمت اختيارًا، بل عجزًا عن الكلام، عجزًا عن ترجمة ما يجول في دواخلنا.

كنا قريبين إلى حدٍ يكاد يلامس أرواحنا، ومع ذلك لم نفلح في إيصال مشاعرنا. لم نستطع التحدث معًا.

كان الصمت مؤلمًا، مرهقًا، ولم نقدر على كسره.

تشاركنا نبوءة نهاية علاقتنا طوال ست وعشرين ساعة، دون أن ننطق كلمة واحدة.

ولّما عجزتُ عن احتمال وطأة هذا الصمت، فتحتُ دليلاً إرشاديًا أتصفحه. ظهرت صورة سلسلة جبال شاهقة، شامخة تلامس السماء بعظمتها: جبال أكونكاجوا، أعلى قمم جبال أمريكا الجنوبية، تنتصب بفخر على الحدود بين الأرجنتين وتشيلي. فإذا بتمثال المسيح يبدو واقفًا شامخًا على قمة جبل عالٍ. راودني سؤال: تُرى، هل استطاع توم أن يرى تمثال المسيح؟ أم تراه رحل قبل أن تقع عيناه على هذا المشهد المهيب؟

وغرقت في تخيلاتي:

تخيلتُ توم ينزل من الباص، وعيناه ترمقان الأرض المترامية عند قمة الجبل، ثم يلتفت إلى الوراء، فإذا بظلٍّ صليب عظيم يرتسم وراءه. يرفع توم بصره إلى أعلى، فإذا بتمثال المسيح الضخم شامخًا، واقفًا بذراعين مفتوحتين. تلمع عينا توم مدهوشتين لدى رؤيته الضوء، ويتألق التمثال أمام ناظريه، وقد تعلقت الشمس خلف ظهره.

بدأت الدموع تتجمع في عينيّ دون أن أقدر على حبسها، فما كان مني إلا أن صرفت نظري، وألقيته إلى الخارج من نافذة الطائرة.

خلف الزجاج، امتد محيط جليدي بلا نهاية، وقد غمرته أشعة الشمس الغاربة بلون قرمزي، جعلت من برده جمالًا مؤلمًا، جمالًا لا يُحتمل لفرط قسوته.

استغرقنا ستًا وعشرين ساعة كي نعود إلى مدينتنا التي تشبه لعبة بنك الحظ.

قالت لي كعادتها دائمًا:

- نلتقي غدًا.

ثم شرعت في الهبوط من المنحدر الذي يتجه إلى المحطة، ولم يكن في وسعي سوى الوقوف هناك، أودّع تلك الهيئة التي ولّت عني، بظهرها المعتدل، المنتصب كعادته.

افترقنا في الأسبوع التالي. كان فراقًا مقتضبًا، لم يستغرق سوى خمس دقائق على الهاتف. أنهينا علاقتنا بذلك الحوار القصير الجاف، كأننا نتمّم إجراءً إداريًّا في دائرة حكومية. آلاف الساعات التي قضيناها في الحديث الهاتفي، أكثر من ألف ساعة من التواصل بالكلمات، تلاشت كلها في خمس دقائق باردة، خالية من الدفء.

لقد منحتنا الهواتف راحة التواصل الفوري، ولكنها في المقابل، سرقت منا وقت الانتظار، وقت الاشتياق، وقت التخيل. سرقت منا البطء الجميل الذي تنمو فيه المشاعر بصمت، حتى باتت كلماتنا تتطاير وتتبخر قبل أن تترسّب المشاعر في القلب.

كانت فاتورة الهاتف تصلني كل شهر: عشرون ساعة من المكالمات، واثنا عشر ألف ين.

أتُراني تحدثت معها بكلمات توازي هذا المبلغ؟ فكم ثمن كل كلمة قلناها إذًا؟

لم يعد ذلك الهاتف، الذي أتاح لنا أن نتحدث بلا نهاية، قادرًا على أن يجعلنا نتواصل. وحين خرجنا من عالم لعبة بنك الحظ إلى العالم الحقيقي، تنبّهنا فجأة إلى أنّ قواعد اللعبة التي تحفظ علاقتنا، لم تكن إلا قوانين لعبة في النهاية، وأنها غير صالحة خارجها.

لقد مات الحب بيننا منذ وقت طويل، لكننا واصلنا اللعب، متمسكين بقواعد اللعبة، كأن الالتزام بها يكفي ليبقي على كل شيء. وفي الأيام القليلة التي أمضيناها في بوينس آيرس، اتّضح لنا أن تلك القواعد لم تعد تعني شيئًا.

ولكن تبقّى في قلبي وجع.

لو كنا وقتها نحمل هواتفنا داخل الطائرة، لما افترقنا.. ربما

ربما كنا تخلينا عن لعبة بنك الحظ، وبدأنا لعبة جديدة.

أغرق في خيالاتي.

ستًا وعشرين ساعة داخل الطائرة.

تخيلّتُ أن الإله منحنا هاتفين.

فاتصلت.

اتصلتُ بها، هي الجالسة بجواري.

فيمَ تفكرين حاليًا؟

فيمَ تفكر أنت؟

أشعر بالحزن.

أشعر بالوحدة.

أفكر فيكِ.

وأنا كذلك، أفكر فيكَ.

ماذا نحن فاعلان؟

لا أدري، ماذا علينا أن نفعل؟

أريد العودة سريعًا.

أنا أيضًا.

ماذا نفعل بعد العودة؟

ماذا نفعل بعد العودة؟

ما رأيك أن نعيش معًا؟

قد تكون فكرة جيدة.

لنشرب قهوة في البيت.

أنا سأشرب كاكاو.

كنا سنتحدث، فقط لو كان معنا هواتف.

ولو امتد وقت العودة إلى ست وعشرين ساعة، لتمكنا مواصلة الحديث.

لا بأس أن نتحدث في توافه الأمور، يكفي فقط أن يُبلغ واحدنا الآخرَ مشاعره. كان يكفي فقط وجود هاتف. ولكن، لم يكن لدينا هاتف.

حين ودّعتني في محطة القطار، قالت:

- نلتقي غدًا.

حتى الآن أتذكر من حين لآخر الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على وجهها وهي تلقي عليَّ هذه التحية. سكنت هذه الابتسامة في طرف قلبي الأيمن كوجع ضئيل، ومثل الندوب[1] القديمة التي تعاودني آلامها في الأيام الممطرة.

حين أمعنت النظر في الأمر، وجدت أن قلبي يضم كثيرًا من تلك الأوجاع الضئيلة. أظن أن البشر يطلقون على تلك الآلام الضئيلة اسم «الندم».

تكلمتْ فجأة فأعادتني مجددًا إلى الواقع، وأدركتُ أننا وصلنا إلى دار السينما.

- اليوم ...

- ماذا؟

- أعتذر عن قولي أمورًا شنيعة عدة.

- كلا، كلا، لقد استمتعتُ بلقائك.

- ولكن هذا هو العهد.

---

(١) يؤمن اليابانيون أن الجروح التي شفيت (الندوب)، تعود لتؤلم أصحابها في فصل المطر ويقولون إن سبب ذلك علميًا هو أن الجسم يكون في أضعف حالته في أوقات تغير الفصول، وخاصة فصل المطر، وأن السبب هو تغيرات ضغط الهواء. فعندما ينخفض ضغط الهواء، تتمدد الأنسجة الداخلية قليلاً، مما يحفز الأعصاب المحيطة بالجرح، مسبباً الألم. كما يمكن أن يُخلّ هذا التغير في ضغط الهواء بتوازن الجهاز العصبي اللاإرادي، مما يزيد من حدة الألم/ المترجم.

- ماذا؟

فقالت مستاءة:

- نسيتَ مرة أخرى! ألم نتعاهد على أن يبلغ كل منا الآخر بعيوبه عند الافتراق؟

هذا صحيح. لقد تعاهدنا على ذلك بالتأكيد. فقد قلتُ لها بلا أي خجل: إذا حدث وافترقنا فليبلغ كل منا الآخر بكل ما كرهه فيه من عيوب، وأن يكون معلمًا له في الحياة، لأن كلًا منا سوف يواصل حياته بعد الفراق. وفي كل مرة أقول ذلك كانت تجيب قائلة: «لا أتخيّل أننا سنفترق». وكنتُ أنا أيضًا لا أتخيّل ذلك.

ضحكت وقالت بسعادة:

- قلتُ لك كل ما أكرهه فيك، قبل أن تموت.

- أشكرك على وفائك بالعهد، ولكن، أعترف أنه ليس ما يرغب المرء في سماعه قبيل الموت.

ثم ضحكتُ أنا أيضًا.

حين بدأ الحب بيننا، لم أتخيل قط أننا سنفترق يومًا. كنتُ أتصور أن سعادتي تعني سعادتها، وعلى حين غرة جاء الوقت الذي لم يعد فيه الأمر كذلك، الوقت الذي أكون فيه سعيدًا وهي تعسة.

ينتهي الحب لا محالة. ويعلم الإنسان تمامًا أنه سينتهي يومًا ما، إلا أنه يختار الحب.

وربما كانت الحياة كلها على هذا النحو. نعيشها ونحن على يقين من

أن نهايتها قادمة لا محالة، ونتصرف كأننا سنعيش إلى الأبد. وتبدو الحياة جذابة لامعة، لأنها ستنتهي، مثلما هو الحب تمامًا.

قالت وهي تفتح باب دار السينما الثقيل:

- ستموت قريبًا، أليس كذلك؟

- هل هذا شيء يقال بهذه الاستهانة؟!

- حسنًا، سأعرض لك هنا الفيلم الذي تحبه، فلنشاهده معًا.

- أشكرك.

- حسنًا، نتقابل هنا غدًا في الساعة التاسعة ليلًا. سيبدأ العرض بعد انتهاء ساعات العمل. لا تنس أن تحضر معك الفيلم الذي تحبه.

- اتفقنا.

- آه، سؤال أخير؟

- مرة أخرى؟

- ما أكثر مكان أحبه؟

تُرى ما هو؟ لا أتذكره أبدًا!

- كما توقعتُ، لا تتذكر! حسنًا، هذا واجبك المنزلي. عليك معرفة الإجابة حتى موعد لقائنا غدًا.

قالت هذا وأغلقت الباب. ثم قالت عبر الزجاج:

- نلتقي غدًا.

فأجبتُ من وراء الزجاج:

- نلتقي غدًا.

أظلم الشارع بعد انطفاء أنوار السينما.

ظللتُ لحظات أرفع رأسي عاليًا لأتأمل مبنى دار السينما، ذلك المبنى المشيّد من الطوب، والمزدان بأضواء الزينة المتلألئة بالأحمر والأخضر.

يا له من يوم عجيب!

اختفت الهواتف من العالم. تُرى ماذا فقدتُ في المقابل؟

لقد ائتمنتُ ذلك الجهاز على ذاكرتي وعلاقاتي الاجتماعية، وعندما اختفى فجأة، استبد بي القلق، والأهم من ذلك أن اختفاءه مزعج. كان الانتظار تحت برج الساعة وحيدًا أشد وطأة مما تخيلت، مما زادني قلقًا ويأسًا.

مع اختراع الهواتف ثم الهواتف الجوالة، اختفت فكرة عدم الوصول إلى الإنسان الذي ينتظرك، واختفت فكرة الاتفاق على موعد ومكان محددين للقاء. ولكن، حين كنتُ أنتظرها تحت برج الساعة بلا هاتف جوال، اختلط الإحباط الناجم عن عدم القدرة على الوصول إليها بشعور الانتظار الدافئ، وظلا داخلي بقوة إلى جانب ذلك البرد الذي جعلني أرتجف برعشة لا تهدأ.

- آه ...

تذكرتُ فجأة.

- إنه هنا!

تذكّرت سؤالها. وتذكّرت المكان الأحب إلى قلبها. إنه دار السينما.

قالت لي ذلك ذات مرة في الماضي.

«أشعر أنّ هذه الدار تترك لي دومًا مقعدًا خاليًا، ولا يكتمل هذا المكان إلا حين أجلس أنا في ذلك المقعد الشاغر».

كانت دائمًا تقول هذا وتكرره.

لقد تذكّرتُ الآن الإجابة الصحيحة. يجب أن أبلغها بها فورًا.

بحثتُ عن هاتفي الجوال في جيبي.

غير موجود! نعم، لقد اختفى.

يا لخيبة الأمل. كنتُ أريد أن أخبرها بالإجابة في الحال.

رفعت بصري إلى دار السينما وأنا أضرب الأرض بقدمي ببطء.

فانتبهتُ أن مشاعري الآن تشبه مشاعري عندما كنتُ أنتظر منها اتصالًا أيام كنا طلابًا. الوقت الذي أشعر فيه بالإحباط من عدم قدرتي على إبلاغها مشاعري فورًا، هو ذاته وقت تفكيري فيها.

مثلما كان البشر في السابق يترقبون بلهفة وصول بريدهم إلى الطرف الآخر ووصول بريد الطرف الآخر إليهم.

تمامًا مثل الهدية، لا يكمن المعنى في الهدية نفسها، بل في الوقت الذي تقضيه في اختيارها وتخيل السعادة على وجه متلقيها.

فجأة، تذكرتُ كلمات أمي:

«لكي تنال شيئًا، يجب أن تفقد شيئًا في المقابل».

قالتها أمي ذلك اليوم، يوم اختفى العطاس والرشح من أنفها. قالتها بحنان، ولكن بيقين، وهي تمسح على خس النائم على حجرها.

فكرتُ في حبيبتي السابقة وأنا أنظر عاليًا إلى دار السينما. شعرتُ بكلماتها تثقل كاهلي بشدة.

- ستموت قريبًا، أليس كذلك؟

وفجأة، بدأ الجانب الأيمن من رأسي يؤلمني ألمًا لا يُحتمل. شعرت بانقباض في صدري، ولم أعد قادرًا على التنفس. اجتاحتني قشعريرة مرعبة، وبدأ جسدي يرتعش بعنف. اصطكّت أسناني بصوت عالٍ.

هل سأموت حقًا؟

كلا، لا أريد أن أموت.

لم أعد أملك القدرة على الوقوف، فأسندت جسدي إلى دار السينما.

ثم سمعت فجأة، صوتي يأتيني من ورائي:

- لا أريد أن أمووووت!

فذهلتُ واستدرت للخلف.

إنه... ألوها.

- دهشتَ؟ أخبرني: ألم تدهش؟

في برودة تصل إلى درجة التجمد تحت الصفر، كان هو الوحيد الذي يرتدي قميص ألوها الصيفي وسروالًا قصيرًا، وعلى رأسه نظارة شمسية. بل غيّر تصميم قميص الألوها، فبدلًا من أشجار النخيل والسيارات الأمريكية الكلاسيكية، أصبح يحمل رسومات لدلافين وألواح تزلج على الأمواج.

هذا المخلوق... يغير ملابسه! غضبتُ من أعماق قلبي، لكني لم أكن في حالة تسمح لي بالغضب.

- رائع! خرجت في موعد عاطفي! كم أحسدك! لقد ظللتُ أراقبك طوال اليوم، كنتَ تبدو مستمتعًا جدًا.

فسألته وأنا أتصبب عرقًا باردًا:

- كنت تراقبني؟ من أين؟

فأشار ألوها إلى السماء:

- من هناك.

لم أكن في حالة تسمح لي بمواصلة هذا الحديث.

- ولكن لنعد إلى الجد، ما زلت لا تريد الموت أليس كذلك؟ تولّد لديك تعلق بالحياة.

- ... لا أدري.

- هذا هو حالك بالتأكيد. لقد صرختَ «لا أريد أن أمووت!!!» الجميع يفعلون ذلك.

لا مفر من الاعتراف بصحة ما قال، للأسف.

ربما كانت جملة «لا أريد أن أموت» غير دقيقة تمامًا. بل كنتُ فقط لا أطيق رعب التوجه إلى طريق الموت.

- حسنًا، لقد قررتُ بالفعل الشيء الذي يختفي هذه المرة!

- ماذا؟

- هذا.

قال ألوها ذلك وهو يشير إلى دار السينما.

- ما رأيك؟ نجعل الأفلام تختفي هذه المرة. مقابل يوم إضافي من حياتك.

- الأفلام ...

غبشت رؤيتي تدريجيًا، فهمستُ بتلك الكلمة وأنا أتأمل دار السينما في شرود.

دار السينما التي كنتُ أذهبُ إليها مع حبيبتي كل يوم تقريبًا. الأفلام التي لا حصر لها.

ومضت أمام عينيّ لقطات من مشاهد سينمائية متنوّعة، تتوالى واحدة تلو الأخرى: تيجان ملوك، خيول، مهرجون، سفن فضائية، قبعات حريرية، بنادق، نساء عاريات... إلخ.

المهرج يضحك، والسفن ترقص، والحصان يتكلم.

إنه، كابوس.

صرختُ بلا صوت:

- النجدة!

ثم فقدتُ الوعي.

الأربعاء
لو اختفت السينما من العالم!

رجلٌ يعتمر قبعة من الحرير ويرتدي بدلة توكسيدو أكبر من قياسه، ويحرك عصاه حركة دائرية، اقترب مني وقال لي:

- الحياة مأساة حقيقية من قريب، لكن إذا ابتعدنا قليلًا ونظرنا إليها، سنجدها ملهاة هزلية.

يا للعمق! لطالما تسللت هذه الكلمات إلى قلبي، بل اخترقته، وأثرت فيّ أشد التأثير الآن. وددتُ لو أستطيع إبلاغه بما فعلت بي كلماته، لكن أحيانًا يعجز المرء عن صوغ مشاعره في كلمات.

واصل الرجل كلامه:

مثلما يتعذر علينا تفادي الموت، فإن الحياة هي الأخرى لا يمكن تفاديها. أدركتُ لأول مرة صحة هذه الكلمات وأنا على مشارف الموت. فالموت والحياة وجهان لعملة واحدة. لكنني الآن أعاني من اختلال فادح في كفّتيّ الميزان بينهما.

اجتهدتُ في حياتي ما استطعت، ولم يبقَ لي الآن سوى الكثير من الندم. لقد سحقتْ رهبة الموت لدي كل معنى للحياة.

شعر الرجل ذو التوكسيدو بما في نفسي من مشاعر، فتقدّم نحوي، وهو يعبث بشاربه القصير بلمسة خفيفة، وقال:

- لا شيء يحدث حين نبدأ بالبحث عن المعنى. ألا ترى أن المعنى ليس مهمًّا إلى هذا الحد؟ عيش الحياة لذاتها كافٍ، بل جميلٌ ورائع. حتى قناديل البحر، لحياتها مغزى وفي عيشها معنى.

كان على حق. لا ريب في أن لكل شيءٍ في هذا العالم معنًى في وجوده: قناديل البحر، وحصى الطريق، والزائدة الدودية، لكل شيء معنى. ربما.

ولكن، إذا كان لكل شيء في هذا العالم معنى لوجوده، ألا يجعل ذلك من إزالتي أي كائن منه جريمة لا تغتفر؟ فحتى قنديل البحر، لحياته معنى! ولذا، ربما كنتُ، أنا الذي ليس لوجودي حيًّا أي معنى الآن، أقلّ شأنًا من قنديل البحر.

اقترب مني الرجل أكثر.

أجل إنه هو. كان الرجل هو تشارلي شابلن بلا أدنى شك.

وقف شابلن أمام عيني، ثم غطى وجهه بقبعة الحرير.

- مياو.

وما إن خلعها، حتى بدا وجهه وجه قط.

- !!!

قفزتُ قائمًا وأنا أصرخ بلا صوت.

نظرت إلى ساعتي، فإذا هي التاسعة صباحًا.

وإلى جوار وسادتي، كان كرنب متكوّمًا، يبدو عليه القلق، يموء: مياو، مياو.

أخذت أُدلّك جسده برفق، كان دافئًا وناعمًا، حيًّا نابضًا، بإحساس الحياة.

بدأ عقلي يستعيد نشاطه، وتذكّرت شيئًا فشيئًا ما جرى ليلة البارحة.

سقطت أمام دار السينما مغشيًا عليّ من شدّة البرد والدوار.

ولا أتذكر ما حدث بعد ذلك إطلاقًا، لم يبق سوى صداع خفيف وسخونة تسري في جسدي.

صرخ صوت من المطبخ:

- سهلًا، مهلًا، ما هذا؟ ما هذه المبالغة!

كلا، ليس أنا. ولكنه الشيطان... الشيطان الذي يتّخذ ملامح وجهي.

- أعفني من هذا أرجوك! كل هذا بسبب نزلة برد؟!

- نزلة برد! ماذا تعني؟

كان قميص ألوها الأحمر صاخب الألوان لدرجة أزعجت عيني.

- فقدتَ الوعي، بسبب إصابتك بنزلة برد، لا أكثر. لقد شقّ عليَّ أن أُعيدك إلى هنا. إنه عمل شاق يا صديقي، حتى على الشيطان!

صب ألوها ماء مغليًا في كوبي، ثم أضاف إليه عسل نحل، وعصر ليمونة، وحرّك الخليط بملعقة، ثم قال:

- كنتَ تعاني معاناة شديدة حتى ظننت أنك ستموت.

وضع ألوها الكوب بجوار سريري باستياء.

- ... شكرًا.

رشفتُ ببطء رشفة من هذا الشراب الحلو اللاذع اللذيذ.

- حتى يومنا هذا، لم أفشل مرة واحدة في تمديد حياة أحد! فإذا أخطأت سيغضب عليَّ الإله.

- سأكون أكثر حذرًا مستقبلًا...

- لم تعد بالفعل ممن يستطيعون القول «مستقبلًا»، وستضعني في مأزق إن لم تُدرك هذا!

يا لجدال ألوها اللامنطقي! ولكن ما باليد حيلة، فهو الآن طوق نجاتي الوحيد.

ابتعد كرنب عن سريري وهو يموء مواء خافتًا. حتى كرنب بدا مستاء مني هو الآخر.

انتظر ألوها حتى انتهيت من شرب عصير الليمون الساخن ثم سألني:

- حسنًا، ماذا ستفعل؟

- في ماذا؟

- لا تستخف بي أرجوك! ما ستُقرر أن يختفي من هذا العالم.

- آها.

- هذه المرة الأفلام.

- أجل، هكذا كان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أتخفيها؟ أم تبقيها؟

أتخيل:

لو اختفت الأفلام من العالم.

هذه كارثة كبرى. فهي شغفي الوحيد.

أدرك جيدًا أني لست في وضع يسمح لي بالاختيار، لكن... هل أخسر كل تلك الأقراص الهائلة التي اشتريتها واحتفظت بها؟ لقد اشتريت مؤخرًا مجموعة ستانلي كوبريك الكاملة، وأخرى لسلسلة حرب النجوم.

إممم ... ولكن، هل هذا هو مقدار الخسارة فقط؟ هل هذه فقط هي قيمة الأفلام في نظري؟ أحقًا هذا؟

يقترب ألوها ليستحثني بقوله «أسرع! أسرع!» ولكن هذه مسألة مهمة. لنتوقف مرة ونفكر فيها بإمعان.

- ألا يمكن أن نختار شيئًا آخر ... بديلًا عن الأفلام؟

- لا يمكن!

- مهما كان؟

- حسنًا ... مثل ماذا؟ ما الذي لا تمانع من اختفائه؟

الموسيقى مثلًا؟

يرفع أحد متاجر الأسطوانات شعارًا يقول:

.NO MUSIC, NO LIFE

لا حياة بدون موسيقى!

تُرى هل نستطيع الحياة بدون موسيقى؟

نستطيع بكل تأكيد.

أحسب أنني قادر على الاعتكاف في البيت في الأيام المطيرة من دون الاستماع إلى شوبان.

ربما سأحرم من لحظات السعادة والانتعاش في الأيام المشمسة إذا ما اختفى بوب مارلي، ولكن أحسب أني سأحتمل هذا أيضًا. لا شك أن سماع أغاني البيتلز وأنا أجرى بالدراجة الهوائية بسرعة جنونية يعطيني نشوة لا تُقاوم، (أعدها الموسيقى التصويرية لعملي في توزيع البريد)، ولكنني سأستطيع تأدية عملي بشكل أو بآخر.

حتى بيل إيڤانس، وغناؤه المحزن والمقبض للقلب، الذي يصاحبني في عودتي لبيتي سيرًا على أقدامي في الطرق المظلمة، لن يكون غيابه كارثة.

الخلاصة الأولى:

.NO MUSIC, YES, MY LIFE

تستمر الحياة بدون الموسيقى. سأواصل العيش من غير موسيقى، وإن كانت حياة حزينة.

مهما هتفوا:

NO COFFEE, NO LIFE! NO COMIC, NO LIFE!

ولكن الحياة مستمرة، حتى بدون القهوة أو بدون الكتب المصورة. حتى لو اختفى الجيلي بطعم القهوة، أو قهوة اللاتيه من ستاربكس

اللذين أحبهما كثيرًا، فسأستطيع مواصلة حياتي بالتأكيد. يشقّ عليّ وداع أكيرا ودورائمون وسلام دانك، ولكنني سأبرهن على أنني قادر على وداعهم بطريقة أو بأخرى من أجل حياتي.

بالطبع أكره أن يختفي ما أعشقه؛ تماثيل الشخصيات الفنية الصغيرة، والأحذية الرياضية، والقبعات، وبيبسي كولا، ومثلجات هاجن داز، ولكنني لن أموت إن فقدتُ أي منها. الحياة لها الأولوية.

وهكذا، في عالمي المتخيَّل، تخلّيت عن كل مفضلاتي.

خلاصة رقم اثنين.

لن يموت المرء إذا توفر له الأكل والماء والسكن.

أعني أن أغلب الأشياء في هذا العالم وجودها وعدمها سواء.

تلك الأفلام العظيمة، التي رافقتني طَوال مسيرة حياتي، تُرى هل سأشعر أن جزءًا مني اختفى معها، لو غابت ذات يوم؟

«أن تعرف الطريق شيء، وأن تسير فيه على أرض الواقع شيء آخر تمامًا».

كان هذا أحد حوارات فيلم ماتريكس.

لذلك فظاهرة الاختفاء من العالم شيء، والواقع الذي يتعلق بهذا الاختفاء شيء مختلف تمامًا. بل ينتج فراغ شاسع لا تُقاس قيمته، يخلق تأثيرًا أكبر من التأثير المادي المباشر، ولا يُدرك للوهلة الأولى. ولكنه حتى وإن بقي مستترًا، لا يلحظه أحد، فإنه يواصل في الخفاء إحداث تحولات عميقة في حياتنا.

اختفاء الأفلام سيؤلم قلبي أكثر من أي شيء آخر، فسوف أنتزع الأفلام من حبيبتي السابقة التي تعشق الأفلام، ومن محبي الأفلام في العالم كله. جريمة لا تغتفر.

ومع ذلك، فإن وجودي أنا، هو الأصل، ثم يأتي وجود الأفلام نتيجة لاحقة له. فإذا زالت حياتي، فهي النهاية. إن لم أكن حيًّا، فلن أستمتع بمشاهدة الأفلام، ولن أتمكن من مشاركة روعتها مع أحبائي وأصدقائي من عشاقها.

وهكذا، اتخذت قراري. سأجعل الأفلام تختفي من الوجود.

في أحد الأفلام التي شاهدتها قديمًا، قال أحد الأبطال:

«كثير من البشر في هذه الحياة يرغبون في بيع أرواحهم للشيطان. لكن المشكلة هي أن الشيطان الذي يقبل تلك الصفقة نادر الوجود».

لكن، هذا القول خاطئ، فقد ظهر أمامي شيطان يريد شراء روحي. ولم يخطر ببالي يومًا، ولا حتى في الأحلام، أن يظهر الشيطان الحقيقي أمامي، حرفيًّا.

ألوها، شديد المرح، لكنه على الأرجح شيطان حقيقي، قال لي مبتسمًا:

- يبدو أنك قررتَ.

- أجل ...

- حسنًا، اتباعًا للقاعدة، تمتّع بمشاهدة الفيلم الذي تحبه لآخر مرة.

تذكّرت، أنني أستطيع اختيار فيلم. لكن حين فكرت، وقعت في حيرة لا توصف، لا يمكنني الاختيار.

«سوف أعرض لك هنا الفيلم الذي تحبه، دعنا نراه معًا»

عادت إلى ذاكرتي كلماتها ليلة أمس. ربما كانت نبوءة.

على أي حال، أي فيلم أختار ليكون آخر فيلم أشاهده في حياتي، من بين العدد الهائل من الأفلام التي أحبها؟ هذه معضلة كبرى. هل أختار فيلمًا سبق أن شاهدته؟ أم أختار فيلمًا فوّتُ فرصة مشاهدته؟

كثيرًا ما شاهدت برامج تلفزيونية، وقرأت تقارير صحفية عن «الاختيار الأخير»، مثل الوجبة الأخيرة قبل الموت، أو ما ستأخذه معك إلى جزيرة غير مأهولة. ولكن، حين أُوضِع أنا في هذا الموقف فعليًّا، لا أجد أشد عذابًا منه. ومع ذلك، فرفض اقتراح ألوها ليس أحد الخيارات المتاحة، لأنني سأموت بالفعل.

- يبدو أنك غير قادر على الاختيار ... أتفهّم ذلك تمامًا، فأنت من كبار عشّاق السينما.

- أجل.

- إذا كان الأمر كذلك، فسوف أمنحك نصف يوم من الآن، قرر خلاله، آخر فيلم تشاهده في حياتك!

حين بلغت حيرتي ذروتها، قررت أن أزور تسوتايا.

أقصد تسوتايا الإنسان، وليس نادي الفيديو[1].

---

(١) أشهر سلسلة محلات لنوادي الفيديو وتأجير الأفلام في اليابان، اسمها تسوتايا / المترجم.

هل يبدو هذا التعبير الياباني غريبًا؟

فلأعدله إذًا.

حين بلغت حيرتي ذروتها، قررت أن أزور صديقًا حميمًا أعرفه من المرحلة المتوسطة (وهو موسوعة متنقلة للأفلام لذا أطلقنا عليه لقب تسوتايا) ويعمل في نادي فيديو قريب من بيتي (بالمناسبة ليس فرعًا من محلات تسوتايا).

يعمل تسوتايا منذ عشر سنوات تقريبًا في نادي فيديو (أكرر مرة أخرى أنه ليس فرعًا لتسوتايا)، وأظن أنه قضى نصف عمره داخل نوادي الفيديو، وقضى النصف الآخر في مشاهدة الأفلام، أي أنه نذر حياته كلها باستثناء وقت النوم للأفلام. أوتاكو (مهووس) أفلام بنسبة مئة بالمئة.

التقيتُ تسوتايا في ربيع السنة الأولى من المرحلة المتوسطة. كنا في الفصل ذاته.

ظلّ لا يتحدث إلى أحد، ولا يرفع بصره إلى أحد أسبوعين، لا في الدروس، ولا في الفُسح، ويقضي معظم وقته وحيدًا في ركن الفصل، فتحدثتُ إليه رغمًا عنه وأصبحنا أصدقاء.

ولا أتذكر ما الذي دفعني للحديث إليه آنذاك. لكنني على يقين بأن في حياة الإنسان لحظات ثلاث فقط ينجذب فيها، دون سبب واضح، إلى شخص يناقضه في كل شيء. إن كانت امرأة صارت حبيبته، وإذا كان رجلًا، صار صديق عمره.

وقد شعرت آنذاك بانجذاب لا يُقاوم نحو تسوتايا، وحين أفقت، وجدتني أتحدث إليه، وما لبث أن صار أعز أصدقائي.

ومع أننا كنا صديقين مقربين، لم يكن تسوتايا يكلمني إلا نادرًا، ولا ينظر في عيني إلا مرتين أو ثلاث مرات. ومع ذلك، كنت أحبه. ولكن، هذا الفتى قليل الكلام في المعتاد، إذا بدأ الكلام عن الأفلام، تكلم بطلاقة وعيناه تتألقان بوميض مدهش. علّمني حينها أن المرء، حين يتحدث بصدق عما يحب، أيًّا كانت طريقة حديثه، فإن شيئًا يتحرك في أعماق المستمع.

في المدرسة المتوسطة، دخلتُ عالم الأفلام من أوسع الأبواب، إذ عرّفني تسوتايا على الأفلام بلا حدود، وحرصتُ على مشاهدتها كلها من البداية للنهاية.

أفلام تاريخية يابانية، ثم أفلام الخيال العلمي الهوليودية، وبعدها الموجة الفرنسية الجديدة، إلى الأفلام الأسيوية المستقلة.

كان تسوتايا يقول دائمًا: «الفيلم الجيد، جيد مهما كان نوعه».

كان يتجاوز كل التفاصيل، تصنيف الفيلم، ومتى صُنع، وفي أي دولة صُنع، مَن أبطاله ومَن مخرجه. كان رأيه الذي لا يتغير حتى النهاية أن «الفيلم الجيد، جيد مهما كان نوعه» ولا علاقة لذلك بالعصر ولا بالجنسية.

وبفعل صُدَفٍ غريبة، كنا معًا كذلك في الفصل نفسه بالمرحلة الثانوية. وفي نهاية ست سنوات من التعليم السينمائي الصارم على يد تسوتايا أظنّني أصبحت، إلى حدٍّ ما، من عشاق السينما أو بالأحرى أوتاكو. ولكن من يطلق عليهم لقب أوتاكو في هذه الحياة، بما فيهم أنا، ليسوا إلا مجموعة من المُدّعين إذا ما قورنوا به. في زمن الأوتاكو

الصناعي، الذي يُمنح فيه هذا اللقب لكل من حاز القليل من الشغف، يمكن القول إن تسوتايا هو الأوتاكو الأصلي، الأوتاكو الذي تربى في الطبيعة وليس إنتاج المزارع. ومع ذلك، لا أرغب أبدًا أن أكون مثله. معذرة يا تسوتايا.

وصلت إلى نادي الفيديو، بعد أن مشيت مسافة قدرها ثماني دقائق.

كما توقعت، كان تسوتايا يقف خلف مكتب الحساب. كان ذلك المكان موضعه الثابت، حتى بدا لي كتمثال بوذا القابع في سكينة تامّة داخل قدس الأقداس. عند النظر إليه من الخارج، ترى أن تسوتايا لم يقف داخل المحل وحسب، بل كان الأساس الذي التف حوله المحل مع أعداد لا حصر لها من أقراص الـ DVD.

- تسوتايا!

ناديتُ عليه حالما دخلت من الباب الإلكتروني.

- مر ... وقت ... طويل. ماذا ... حدث؟

لم يكن تمثال بوذا، بل تسوتايا، كعادته لا ينظر في عيني مباشرة. رغم أنه لم يعد صبيًا يافعًا، بل رجلًا ناضجًا.

- إنها مفاجأة، لكن ليس لدي وقت، لذا سأدخل في الموضوع مباشرة.

- مـ... ماذا حدث؟

- أنا في المراحل المتأخرة من مرض السرطان... وسأموت.

- ماذا!

- ربما أموت غدًا.

- مـ... ما ... ماذا!!

- ولهذا يجب أن أقرر في الحال: ما آخر فيلم أشاهده قبل أن أموت.

- ما ... ماذا ... ماذا!!!

- ولذلك أرجوك يا تسوتايا، ما الفيلم الذي يراه المرء قبل أن يغادر هذه الحياة؟

ظهرت على تسوتايا ملامحٌ تشي بأني وضعته في مأزق حقيقي لأني حملته مسؤوليةً بهذه الخطورة على حين غرّة.

وهذا طبيعي، معذرة يا تسوتايا.

- هـ... هل أنت جاد؟!

- أجل، للأسف الشديد.

أغمض تسوتايا عينيه، فبدا كمن يقاوم الحزن، ولكنه بدا كذلك غارقًا في تفكير عميق، ثم فتح عينيه وهو يزفر نفسًا طويلًا، ثم اندفع خارجًا من وراء مكتب الحساب بسرعة، وبدأ يتجوّل برشاقة بين الأرفف التي تشبه المتاهة.

تلك عادته دائمًا. يهب لمساعدة الآخرين، من غير البحث عن أسباب، فلا يسأل ولا يستفسر.

وقفنا معًا نمعن النظر في الأرفف المتخمة بالأقراص الرقمية متعددة الاستخدامات وأقراص الأشعة الزرقاء المرتّبة على هيئة صفوف ممتدة.

هناك أفلامٌ تُعدّ ولا تُحصى، تتوالى أمام ناظريّ كأنها شريطٌ من الذكريات، وكلما نظرتُ إليها وتذكّرت أنها قد تكون آخر ما أشاهده في حياتي، اندفعت مشاهدها وحواراتها إلى ذاكرتي تباعًا.

جاك بوشنان يغني في فيلم «عربة الفرقة (The Band Wagon)».

«كل ما يحدث في الدنيا، يمكن أن يحدث على المسرح»

فهل ما يحدث لي الآن يمكن أن يحدث في فيلم؟

ذات يوم، يعلن الطبيب للبطل فجأة أن السرطان تمكّن من جسده، وأنه في أواخر أيامه. ثم يظهر الشيطان مرتديًا قميصًا من طراز ألوها، ويطيل في حياة البطل مقابل أن يختار شيئًا يختفي من الدنيا! هذا مستحيل. لا يمكن أن يكون ذلك ضمن حبكةٍ سينمائية! فالواقع أغرب من كل خيال!

يتجول تسوتايا بين أرفف الأفلام الغربية. فأتبعه أنا أيضًا وأتجول بينها.

«القدرات الخارقة ترافقها مسؤولية كبرى»

هكذا يُقال لبيتر باركر بعد أن يحصل على قدرات الرجل العنكبوت الخارقة في فيلم «سبايدرمان».

ربما كنت في الحال نفسها، فأنا أخفي شيئًا من العالم مقابل إطالة حياتي. وفي ذلك مسؤولية هائلة، ومخاطر جمّة، وضغط نفسي لا يُطاق، ومأزق عميق، دون أي استثناءات. كأنني بعد صفقة الشيطان، أصبحتُ أشبه بالأبطال الخارقين في الكتب المصورة الأمريكية.

في خضمّ البلبلة الذهنية، وأنا حائر لا أدري ماذا أفعل، كانت الأفلام تمدّ لي يد العون.

«لتكن معك القوة!»

شكرًا يا حرب النجوم. يا فرسان جيداي.

«سوف أعود مرة أخرى»

أنا أيضًا أريد العودة أيها المبيد (The Terminator).

«العالم كله ملكي»

ماذا يا دي كابريو! أنت لا تفقه شيئًا على الإطلاق.

«الحياة جميلة»

هذا كذب فاضح!

وعند هذا الحد يأتيني صوت من خلفي.

- لـ... ليس بعقلك! بـ... بل بقلبك.

صرخ تسوتايا فجأة نحوي، وقد كنت غارقًا في دوّامة من الأفكار المظلمة. كان يحمل بيده علبة فيلم «دخول التنين».

كرر تسوتايا قوله:

- لـ... ليس بعقلك! بـ... بل بقلبك.

فأجبته وأنا أعيدُ له العلبة مبتسمًا:

- أشكرك يا تسوتايا، لا شك أن بروس لي اختيار رائع، ولكنني أشعر أنه يجب ألا يكون آخر ما أشاهده في حياتي.

قال بيلي كريستال في فيلم «عندما التقى هاري بسالي»:

«أشتري كتابًا، فأقرأ نهايته أولًا. لأنني أخشى أن أموت قبل الانتهاء من قراءته».

وهكذا، وأنا أتأمل الأرفف أمامي، أدركتُ أنني سأموت قبل أن أنتهي من مشاهدة معظم هذه الأفلام.

عند التفكير في الأفلام التي لم أشاهدها، والأطعمة التي لم أتذوقها، والموسيقى التي لم أسمعها، يتسلّل إلى ذهني شعورٌ بالندم على مستقبل كان يُفترض أن أعيشه. ربما يبدو استخدام كلمة «ندم» للإشارة إلى ما سيحدث في المستقبل استخدامًا غريبًا. لكنني لا أستطيع التوقف عن التفكير في كل ما كان يمكنني فعله لو واصلت حياتي. والعجيب أن كلها «وجودها مثل عدمها»، مثل الأفلام التي أوشك أن أجعلها تختفي من العالم.

أخيرًا، وصلنا إلى رف أفلام تشارلي شابلن.

همستُ قائلًا:

- الحياة مأساة حقيقية من قريب، لكن إذا ابتعدنا قليلًا ونظرنا إليها، سنجدها ملهاة هزلية.

وأنا أتذكر حلم شابلن الذي رأيته هذا الصباح.

أجاب تسوتايا:

- فـ... فيلم أضواء المسرح.

ظل المهرّج، الذي أدّى دوره شابلن في ذلك الفيلم، يوجّه كلماته المتتالية إلى راقصة باليه فشلت في تحقيق حلمها، محاولًا ثنيها عن الانتحار.

- الحياة رائعة وجميلة. حتى قنديل البحر لحياته معنى.

لقد كان محقًا، فحتى قنديل البحر له معنى. وإذا كان هذا صحيحًا، فربما يكون لكل شيء معنى، الأفلام، الموسيقى، القهوة. بل إنني بدأت أقتنع أن تلك الأشياء التي يبدو وجودها وعدمه سواء، هي في الحقيقة أشياء شديدة الأهمية لهذا العالم بالذات لأنها «أشياء وجودها مثل عدمها». تجتمع هذه الأشياء، التي تُعدّ ولا تُحصى، وكلها «وجودها مثل عدمها»، وبعضها يبدو في مظهره الخارجي على هيئة الإنسان، في نظري مثلًا، فما شاهدته من أفلام لا حصر له، وكل الذكريات المرتبطة بها، هي في النهاية، أنا.

حياة، بكاء، صراخ، حب، غباء، حزن، فرح، خوف، ضحك. أغنية عذبة، مشهد مبكٍ، غثيان، مطربون، طائرات نفاثة تخترق السماء، جياد تركض، كعكة شهية، فضاء مظلم، راعي البقر يطلق رصاصًا من مسدسه.

كل تلك الأفلام التي تسكن أعماقي وتحمل ذكرياتي لمن شاهدتها معهم من الأحباء والأصدقاء والأقارب، أصبحت تشكّل ذاتي. ذكريات سينمائية لا حصر لها اتخذت هيئة شخصي، وكلّها جميلة ومفعمة بالعواطف والدموع.

ترتبط الأفلام معًا كسلسلة من الخرز في سبحة اليد. تصل بين آمال البشر ويأسهم، وتسلكها معًا في خيطٍ واحد. وما تلبث أن تتراكم صدفٌ بلا حصر لتصنع قدرًا حتميًّا.

- هـ... هـ... هذا هو إذًا.

يعطيني تسوتايا علبة فيلم «أضواء المسرح».

- أشكرك.

- لـ... لـ... لا أدري ماذا سيحدث بعد الآن.

قال تسوتايا ذلك ثم غص بالكلمات.

- ماذا حدث؟

حين انتبهتُ، وجدتُ تسوتايا مطأطئ الرأس، يبكي، تنساب دموعه من عينيه كأنه تلميذ في المدرسة الابتدائية.

وما إن رأيتُه على تلك الهيئة، حتى تذكّرت فجأةً، ولسببٍ مجهول، صورته وهو جالسٌ قرب النافذة وحيدًا.

الحقيقة، أنني حين رأيت تسوتايا ينظر من النافذة وحيدًا، شعرتُ أنني نجوت. كان يحاول التركيز على ما يهمه وحسب، وحيدًا، بتأنٍ، بلا عجالة ولا اختلاط بالآخرين. لقد أنقذتني هيئته تلك. في ذلك الوقت، لم يكن لدي شيء واحد أهتم به. لم يكن تسوتايا يحتاج إليَّ. بل أنا الذي كنتُ أحتاج إليه.

فجأة، انفجرت المشاعر التي كنتُ أكتمها بداخلي، وتجمّعت الدموع في عيني.

اجتهدتُ لأُخرج صوتي:

- أشكرك.

فقال تسوتايا وهو يبكي:

- عـ... على أي حال، أ ... أتمنى أن تعيش أطول ما يمكن.

- لا تبك يا تسوتايا! فوجود قصة جيدة، وصديق نرويها له، يكفي ليجعل الحياة تستحق أن تُعاش، أليس كذلك؟ ألم يقل بطل فيلم «أسطورة عازف البيانو فوق المحيط» هذا؟ لقد كنتَ يا تسوتايا رفيقي هذا الذي أحكي له، ووجودك هو الذي يجعلني أرى أن الحياة ما زالت تستحق أن نحياها.

- شـ... شكرًا.

قال تسوتايا تلك الكلمة الوحيدة، ثم واصل البكاء في صمت.

وصلتُ إلى دار السينما، فاستقبلتني وسألتني:

- هل استطعت الاختيار؟

- أجل. هذا هو.

سلمتها علبة الفيلم.

- أضواء المسرح؟ مفهوم. اختيار جيد.

قالت ذلك وهي تفتح العلبة، ثم فقدتْ النطق.

فقد كانت العلبة خالية تمامًا، لا أثر للقرص بداخلها.

ما زال نادي الفيديو هذا، يؤجر الأفلام بالطريقة التقليدية، أي العلبة مع القرص، ولذا يحدث هذا الخطأ أحيانًا، ولكن أن يحدث الخطأ في مثل هذا التوقيت الحرج!

تسوتايا! خطأ لا يُغتفر يا تسوتايا.

ولكن، تذكرتُ، فلقد قالها فورست غامب:

«الحياة مثل علبة الشوكولاتة، لن تعرفها ما لم تفتحها».

حقًا، لن نعرفها ما لم نفتحها. هذه هي حياتي بالفعل! إذا نظرت لها من قريب فهي مأساة حقيقية، لكن إذا ابتعدنا قليلًا ونظرنا إليها، سنجدها ملهاة هزلية.

- ماذا ستفعل؟ لدينا بعض الأفلام هنا ...

فكرتُ لحظة، ثم قررتُ أمري. كلا بل ربما كان الأمر مقررًا منذ زمن بعيد.

إن الإجابة على سؤال: ما الفيلم الذي تشاهده قبل الموت، في منتهى السهولة.

دخلت السينما وجلست.

الصف الرابع من الخلف، المقعد الثالث من اليمين، هذا هو مقعدي الثابت منذ كنتُ طالبًا في الجامعة.

سمعت صوتها يأتي من غرفة العرض:

- سأبدأ العرض!

ثم بدأ العرض. سقط الضوء على الشاشة. ولكنه ضوء أبيض فارغ من الصور، يضيء الشاشة ضوء أبيض مستطيل.

لم أختر أي فيلم.

فيما كنتُ أحدق بالشاشة البيضاء الخالية من الصور، تذكرتُ صورة رأيتها ذات يوم.

صورة فوتوغرافية لقاعة عرض سينمائي، التُقطت من داخل غرفة العرض، تُظهر المشاهدين على مقاعدهم يطالعون الشاشة أمامهم.

ويُقال إنها صورة تسجل أحد الأفلام والتُقطت بأسلوب خاص، حيث فُتح الغالق في لحظة بدء الفيلم، وبقي مفتوحًا حتى نهايته، أي أنها سجّلت فيلمًا كاملًا امتد ساعتين. وكانت النتيجة أن امتصت الشاشة الضوء المنبعث من كل مشهد على مدى ساعتين، فجاءت في الصورة على هيئة مستطيل ناصع البياض، بلا أي صورة ظاهرة.

أظن أن حياتي شبيهة بذلك أيضًا، في فيلم واحد، تُعرض حياتي التراجيدية الكوميدية في آن.

ولكن، إذا احتويناها في صورة واحدة، فلن يتبقى في الصورة سوى شاشة بيضاء وحسب. تُسجل حياتي في فيلم أبيض تمامًا، يتجاوز المشاعر المتنوعة من فرح وغضب وحزن ومتعة. لا شيء هناك. بل فراغ أبيض شديد النقاء.

حين أعيد مشاهدة فيلم بعد مرور وقت طويل، أشعر بانطباع مختلف تمامًا عمّا شعرتُ به في المرة السابقة.

الفيلم ذاته لم يتغير بالتأكيد. ولكن أنا الذي تغيرت، ومشاهدة الفيلم هي التي تلفت انتباهي إلى ذلك.

فإذا كانت حياتي فيلمًا، فمن المؤكد أن نظرتي إليها ستتغير في كل مرة. فالمشهد الذي كرهته بشدة، أجده الآن محببًا، والمشهد الذي أحزنني بشدة، ها هو يُضحكني. والبطلة التي أحببتها بعمق، أنساها دون أن أدري.

ما أتذكره اليوم فقط، هو الذكريات السعيدة مع أمي وأبي.

أخذني أبي وأمي إلى دار السينما لأول مرة في حياتي، وأنا في الثالثة

من عمري، لمشاهدة فيلم «إي تي». كانت قاعة السينما غارقة في الظلام، والصوت عاليًا جدًا، ورائحة الفشار تملأ المكان.

عن يميني أبي، وعن يساري أمي. جلست بينهما وسط ظلام السينما أريد الهروب ولا أستطيعه، أحدّق مرعوبًا بالشاشة، ولذلك لا أذكر الكثير من مشاهد الفيلم.

مشهد واحد فقط بقي عالقًا في ذاكرتي بقوة، ألا وهو مشهد وضع الفتى إليوت، إي تي على دراجته الهوائية والطيران بها في الفضاء. ما زلت أذكر حتى الآن كيف اجتاحتني المشاعر في تلك اللحظة الفاصلة من الفيلم، وكيف شعرت برغبة في الصراخ، في البكاء، وكيف أدركت للمرة الأولى أن هذه هي السينما الحقيقية. في تلك اللحظة، أمسكتُ بيد أبي بقوة، وأمسك أبي بيدي بقوة في المقابل.

قبل سنوات قليلة، عُرض الفيلم ذاته بنسخته الرقمية المعدلة على شاشة التلفزيون في وقت متأخر من الليل. لا أحب مشاهدة الأفلام التي تتخللها إعلانات، ففكرت في إطفاء التلفزيون، ولكن ما أن بدأتُ المشاهدة، حتى وجدت الفيلم مشوقًا كما توقعت، فوجدت نفسي مشدودًا إليه دون مقاومة.

لقد مرّت خمس وعشرون سنة على تلك الذكرى، لكنني لا أستطيع منع دموعي من الانهمار مرة أخرى في المشهد نفسه.

لم يكن الانبهار ذاته الذي شعرت به وأنا طفل في الثالثة من عمري.

فالآن، بعد خمسة وعشرين عامًا، أعلم أننا لا نستطيع الطيران في الفضاء. وأبي، الذي كان يجلس إلى يميني، لم أعد أكلّمه، ولا ألتقيه منذ

سنوات. وأمي، التي كانت عن يساري، لم تعد في هذا العالم. أدرك أنني لا أستطيع الطيران، وأدرك أن تلك اللحظات التي قضيتها معهما لن تعود مرة أخرى.

عندما كبرت، ماذا خسرت، وماذا ربحت؟ إنها المشاعر التي لن أسترجعها أبدًا. حين فكرتُ في ذلك شعرتُ بحزن عميق لا يُوصف، ولم تجف دموعي.

رفعتُ رأسي أنظر إلى الشاشة البيضاء، أفكّر وأنا وحيد تمامًا في دار السينما.

ماذا لو كانت حياتي فيلمًا سينمائيًّا؟

هل سيكون فيلمًا كوميديًا؟ أم سيكون فيلم إثارة وغموض؟ أم دراما إنسانية؟ على الأقل، لن يكون قصة حب رومانسية.

قال شابلن في أواخر حياته:

«لم أترك ورائي فيلمًا يعد تحفة فنية، ولكنني أضحكت المشاهد. ولا بأس في هذا»

وقال فيديريكو فيليني:

«في السينما، نستطيع تجسيد أي حلم»

لقد ترك الاثنان تحفًا فنية خالدة، وأضحكا المشاهدين وجعلاهم يحلمون، وسيظلان في الذاكرة إلى الأبد.

ولكنني كلما تأملت أكثر، وجدت أن حياتي لا تصلح لأن تكون فيلمًا سينمائيًا.

تخيلتُ نفسي وأنا أحدّق بالشاشة البيضاء.

أنا المخرج.

عائلتي وأحبابي وأصدقائي وكل من تعلقت بهم في حياتي بعدد لانهائي، هم طاقم الفيلم وأبطاله.

تبدأ الحكاية منذ لحظة ميلادي قبل ثلاثين عامًا.

طفل يولد، وأب وأم يبتسمان، وأقرباء يجتمعون، يحملوني واحدًا تلو الآخر، يلمسون خديّ، يمسكون بيديّ. ثم أتقلب أثناء النوم، أحبو، ثم أقف، وأبدأ المشي مترنحًا ويراقب أبي وأمي ذلك بسعادة حينًا وقلق حينًا آخر، وهما يشتريان لي ملابسي ويطعماني، ويجعلاني ألعب بكل قوتي.

بداية عادية جدًا لحياة ليس فيها ما يميزها. ولكنها بداية سعيدة ليس هناك أسعد منها لفيلم.

أغضب وأبكي وأضحك، وأكبر تدريجيًّا. ومع الوقت ينقطع الحديث مع أبي. تُرى لماذا؟ رغم كل ذلك الوقت الذي نقضيه معًا؟ لم أستطع العثور على السبب.

ذات يوم، جاء قط إلى البيت. اسمه خس. نقضي أنا وأمي وخس وقتنا في سعادة. ولكن خسًا يموت، وتتبعه أمي، في أكثر مشاهد الفيلم حزنًا.

بقيتُ أنا وكرنب. فقررتُ أن نعيش معًا. أمّا أبي، فيغيب عن هذا المشهد. أبدأ العمل ساعي بريد. وأواصل حياتي اليومية العادية.

يا له من ملل! الفيلم كله مشاهد عادية جدًا، وحوارات سطحية سخيفة تتواصل بلا روح. يا له من فيلم في منتهى الابتذال والرخص! والأدهى والأمر أن بطل هذا الفيلم (الذي هو أنا!) ضعيف الشخصيّة وممل، ولا يواجه حياته بكل قيمها ومعناها بندّية.

إذا كُتب الواقع كما هو، فلن تكون النتيجة مرضية. لذا، فلنُوجز السيناريو قدر المستطاع، وفي المقابل، نجعل المشاهد درامية وعنيفة. لا بأس بأن يكون الديكور متواضعًا، ولكن على الأقل نجعل له مذاقًا مميزًا. ولنغنِ المشاهد بالكثير من الأدوات المساندة ونكتفِ بالأبيض والأسود للملابس. مكتبة سُر مَن قرأ

ماذا عن المونتاج؟ لا مفر من قطع المشاهد باستمرار لأن أغلبها مشاهد مملة، لكن إذا فعلنا ذلك، سينتج فيلم مدته خمس دقائق فقط! مستحيل. لنشاهده بتمعن من البداية للنهاية بقدر الإمكان. المشاهد التي لا أرغب في مشاهدتها هي وحدها الطويلة جدًا، وبعكسها المشاهد التي أتمنى لو أراها وقتًا أطول تنقطع فجأة في أحلى لحظة فيها. هكذا هي حياتي.

ما الموسيقى التصويرية التي أضعها للفيلم؟ أنغام بيانو رصينة؟ أم إيقاع أوركسترالي هائل ومهيب؟ كلا، ربما الأفضل عزف خفيف وممتع من غيتار. ولكن في كل الأحوال لدي رجاء وحيد، أن تُرافق الموسيقى المرحة، المشاهد الحزينة خاصة!

وهكذا يكتمل الفيلم. ربما يكون فيلمًا قصيرًا متواضعًا، لن يحقق رواجًا بالتأكيد. يُعرض في هدوء، وينتهي عرضه في هدوء. وما يلبث أن يوضع فوق رف في نوادي الفيديو حتى يفقد بريقه.

انتهى المشهد الختامي. تُظلم الشاشة. ويبدأ تتر النهاية.

لكن، إن كانت حياتي فيلمًا سينمائيًّا، فأريده فيلمًا يترك أثرًا في نفس المشاهد بعد أن ينتهي تتر النهاية. حتى وإن كان فيلمًا قصيرًا ومتواضعًا، أتمنى أن ينقذ حياة من يشاهده، ويمنحه دافعًا للحياة.

تمنيت من أعماق قلبي، أن تستمر حياتي بعد تتر النهاية، أن تبقى في ذاكرة أحدهم.

انتهى العرض الذي استغرق ساعتين.

خرجتُ من دار السينما، فوجدت الظلام يخيم على المكان بهدوء.

وحين خرجنا من السينما، سألتني:

- هل تشعر بالحزن؟

أجبتها:

- لا أدري.

- هل تتألم إذًا؟

- أعتذر لكِ، لا أدري أيضًا.

لم أكن أدري حقًا. أأنا حزين لأنني سأموت؟ أم أنني حزين لأنني أجعل أشياء هامة تختفي من العالم؟ أنا نفسي لم أكن أعلم على وجه الدقة.

قالت لي:

- إذا شعرت بأنك تعاني ألمًا لا يُحتمل، يمكنك المجيء إلى هنا متى شئت.

فأجبتها:

- أشكرك.

ثم هممتُ بصعود المنحدر.

فنادتني من خلفي:

- انتظر لحظة. آخر سؤال!

- مرة أخرى؟

- أعدك أن هذه هي المرة الأخيرة.

عندما صرخت هكذا كانت تبكي.

وعندما رأيتُ وجهها الباكي، كنتُ أنا أيضًا على وشك البكاء.

- سأبذل جهدي للمرة الأخيرة إذًا.

- أنا من عادتي، عندما أشاهد فيلمًا بنهاية حزينة، أن أعيد مشاهدته مرة أخرى. هل تعرف السبب؟

كانت هذه هي الإجابة الوحيدة التي ما زلت أذكرها جيدًا.

ذلك الشيء الذي ظللت أتمناه طوال طريق العودة من بوينس آيرس. حتى بعد أن افترقتُ عنها، ظللت مدة أتمنى حدوثه.

- أجل، أعرف الإجابة.

- أجبني إذًا.

- ... لأنكِ كنتِ تأملين أن تتغير النهاية وتصبح سعيدة.

- إجابة صحيحة!

قالت ذلك ثم مسحت دموعها بعنف في أكمامها، ثم لوّحت بيدها في الهواء بقوة وهي تقول:

- لتكن معك القوة!

فأجبتها وأنا أكتم دموعي:

- I'll be back![1]

عدت للبيت فوجدت ألوها ينتظرني وعلى وجهه ابتسامة عريضة. ثم غمز لي بعينه (ورغم قول ذلك، أغمض الاثنتين في آنٍ معًا، كعادته)، ثم اختفت الأفلام من العالم.

وفي تلك اللحظة تحديدًا، لحظة محو الأفلام، تذكّرتُ أمي. لا... لم تكن أمي بالذات، بل تذكرتُ فيلمًا إيطاليًّا كانت تحبه أمي.

فيلم إيطالي قديم اسمه «الطريق».

يحكي الفيلم قصة فنان سيرك متجول خشن الطباع اسمه زامبانو، وامرأة ضعيفة الشخصية تُدعى جيلسومينا، اشتراها لترافقه في جولاته.

وعلى الرغم من أنه كان يهتم بها بطريقةٍ ما، فإنه عجز عن التعبير عن ذلك، وظل يعاملها بقسوة وجفاء. ظلت جيلسومينا وفية في عملها معه، حتى أنهكها المرض. وحين ضعفت صحتها، تخلّى عنها زامبانو دون تردّد.

ومرت سنوات، حتى وصل زامبانو إلى مدينة ساحلية، وهناك سمع امرأة تغني لحنًا كانت جيلسومينا تعزفه دائمًا. وعلم عندئذٍ أنها ماتت. رحلت جيلسومينا، وبقي لحنها. وعندما سمع زامبانو لحن

---

(١) عبارة قالها أرنولد شوارزنيجر في فيلم المدمر، ثم تكرر قولها كثيرًا على لسان شوارزنيجر في بقية أجزاء الفيلم التي صُنعت فيما بعد وفي بعض الأفلام الأخرى التي لعب بطولتها/ المترجم.

جيلسومينا مرة أخرى أدرك أنه كان يحبها. فبكي على شاطئ البحر، غير أن البكاء لم يكن ليُعيدها إليه. لقد أحبّها، ورغم ذلك، لم يستطع أن يحافظ عليها.

كان أمي تقول دائما وهي تشاهد هذا الفيلم:

- الناس عادةً لا ينتبهون إلى الشيء المهم في حياتهم إلا بعد أن يفقدوه.

وأنا الآن أعيش هذه الحالة.

أشعر بالحزن العميق، بالأسى الموجع، لأنني فقدتُ الأفلام. وأقول لنفسي: كم كنتُ أنانيًا! حين أدركتُ أنني فقدتها، فهمتُ كم كانت هذه الأفلام، التي تُعدّ ولا تُحصى، دعامةً لي في حياتي، وكيف ساهمت في تشكيل كياني، في تكوين ذاتي، وصياغة وجداني. ومع ذلك، فقد كانت حياتي أثمن.

ثم أخبرني الشيطان المرح بما قرر اختفاءه المرة القادمة.

وقد وافقتُ على طلبه بلا تردد، إذ لم تكن لديّ رغبة في التفكير في أي شيء.

في ذلك الوقت، لم أتخيل أبدًا أن يؤول كرنب إلى ذلك المصير بسبب قراري.

الخميس
لو اختفت الساعات من العالم

تُرى ما سبب تتابع الأحداث الغريبة؟

في لحظة تكتشف أنك فقدت مفتاح البيت، وفي اللحظة التالية تنتبه إلى اختفاء حافظة النقود كذلك. في بطولة البيسبول للمدارس الثانوية، تتوالى الضربات الناجحة محققة معجزات متواصلة. يتجمع عباقرة المانغا ويسكنون معًا في مسكن توكيوا في ستينيات القرن الماضي.

فجأة يصيبني سرطان في مراحله المتأخرة، فيظهر لي الشيطان، ثم تختفي الهواتف والأفلام من هذا العالم، ... وأخيرًا، يبدأ قطي الأليف في التحدث كالبشر!

- إلى متى ستظل نائمًا، سعادتك؟

مؤكد أنني أحلم.

- عليك أن تستيقظ سريعًا، سعادتك!

إنه حلم بلا جدال.

- استيقظ سعادتك وإلا ...

كلا، لم يكن حلمًا. لقد كان كرنب هو من يتحدث، دون أدنى لبس.

بل إن طريقة حديثه مستوحاة من المسلسلات التاريخية، سعادتك! كلا، كلا، لستُ في حالة تسمح لي بالعدوى منه! ماذا يعني هذا؟

وظهر ألوها وقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

- أنت في حيرة، تتساءل: ما معنى هذا، أليس كذلك؟

كان قميصه اليوم بلون أزرق سماوي. غيّر ملابسه مرة أخرى! قميص مبهرج مرسوم عليه حلويات كبيرة ملتفّة حول عصيّها بألوان الطيف، وببغاوات زاهية، مما أنهك بصري. إنه تناسق لوني غير مريح لمن استيقظ لتوه من النوم. فصرختُ في وجهه بانفعال:

- هذا طبيعي! فلقد صحيت في الصباح لأجد قطي لا يصيح «مياو» بل يقول «سعادتك».

- وصفك رائع. هذه هدية بسيطة مني.

- هدية؟

- أجل. ظننتُ أنك حتمًا تشعر بالوحدة، بعد اختفاء الهواتف، وبعد أن مُحيت الأفلام التي تعشقها. وأنك فقدت من تتحدث إليه، ثم فقدت هواياتك. ولذا، جعلتُ القط يتحدث. فأنا في نهاية الأمر... أنا أستطيع استخدام السحر، لأنني الشيطان بطبيعة الحال.

- كلا، لا أريد قطًا يتحدث فجأة! أرجوك، أعده كما كان. هل يمكنك ذلك؟

- هممم ...

فجأةً، خيّم عليه صمتٌ غريب. تراه لم يتوقع ردّي؟

- ماذا؟ هل قلتُ شيئًا خاطئًا؟

لكنه واصل صمته.

- هل يعني هذا... أنك لا تستطيع إعادته إلى طبيعته؟

- كـ... كلا! سيعود كما كان... سيعود في وقتٍ ما! هذه حقيقة! ولكن... متى؟ الرب وحده يعلم! أعني... لا أعلم. فكما تعلم، أنا لستُ إلهًا... لست إلا شيطانًا!

كنتُ على وشك أن أقول: سأحطّم رأسك! ولكنني ابتلعت كلماتي ودفنتُ نفسي تحت الأغطية وغطيتُ رأسي باللحاف. لم أكن أريد الاستيقاظ. لم أكن أريد الاستيقاظ في عالمٍ اختفت منه الأفلام... وتتحدث فيه القطط.

وهنا بدأ كرنب يمشي فوق وجهي، باذلًا جهدًا حقيقيًا لإيقاظي (تلك طريقته المعتادة، إذ إنني أعاني دومًا من صعوبة في الاستيقاظ). سمعتُ من قبل أن أصل تسمية القطط في اللغة اليابانية أتت من كلمة طفل نائم. لا شك أن هذه النظرية خاطئة. ففي هذه السنوات الأربع لم يزعجني شيء أكثر من استيقاظ كرنب المبكر دائمًا.

- إذا لم تكف عن الكسل وتستيقظ، فسأغضب، سعادتك!

هكذا تحدث كرنب، مع خرخرة قوية تليق بقط.

- آه، هذا كثير!

تقبلتُ الواقع، ونهضتُ من فراشي بقوةِ اندفاع مفاجئة.

وهنا حدّق ألوها في وجهي وسألني:

- بالمناسبة، هل تتذكر؟

- ما ... أتذكر ماذا؟

- لا تستخف بي، رجاءً... ما قررتَ إخفاءه اليوم!

إممم. لم يكن لدي أي ذاكرة على الإطلاق. تُرى ما الذي قررتُ إخفاءه؟ على الأقل لا ألاحظ أي اختلاف أو تغيير في الأشياء المحيطة بي.

- آسف، لا أتذكر ... ماذا كان؟

- أكره هذا التغابي حقًا! إنها الساعات... أجل، الساعات.

- الساعات؟

- بالطبع. لقد قررتَ اليوم إخفاء الساعات.

هذا صحيح. لقد قررتُ أن تختفي الساعات.

لو اختفت الساعات من العالم!

فكرتُ: كيف سيتغير هذا العالم لو اختفت منه الساعات؟

وكان أول ما تبادر إلى ذهني هو صورة أبي من ظهره. فأبي يملك محلًا صغيرًا لإصلاح الساعات.

كان الطابق الأول من البيت الذي نشأتُ فيه، محلًا لإصلاح الساعات. وفي كل مرة أهبط إليه، كنتُ أجد أبي جالسًا هناك، مقوس الظهر، يصلح الساعات في عتمة المحل، تحت ضوء مصباح المكتب.

لم أرَ أبي منذ أربع سنوات، غير أنني متيقّن من أنه ما زال حتى هذه اللحظة مستمرًا في إصلاح الساعات داخل ذلك المحل المنزوي في ركن من أركان المدينة الصغيرة.

لو اختفت الساعات من العالم، فلا حاجة إلى ساعاتي. سواء أكان في ذلك المحل الصغير أم المهنة ذاتها. وحين فكّرتُ في ذلك، وخزني ألم صغير في صدري لما اقترفته في حقه.

ولكن هل حقًا اختفت الساعات من العالم؟ ساورني شك مفاجئ، ولم أستطع تصديق الأمر بسهولة. نظرت حولي. اختفت ساعة يدي بالفعل، ولا أرى المنبه الصغير في غرفتي. ربما كان الأمر شبيهًا بما جرى مع الهواتف، فلا يختفي الشيء فعليًا، بل يتوقف وعيي عن إدراك وجوده فقط. ولكن الساعات اختفت بالفعل من هذا العالم على أي حال.

وحين وجدتُ نفسي فجأة في عالم بلا ساعات، أدركت أنني قد فقدتُ تمامًا أي إحساس بالوقت. خيّل إليّ أننا في الصباح، ولأنني أشعر أنني نمتُ أطول من اللازم، خمّنت أن الساعة الآن ربما قاربت الحادية عشرة. لكن حتى إذا فتحت التلفزيون، فلن تظهر الساعة على شاشته، واختفى الهاتف الجوال هو الآخر من العالم. إنني حقًا لا أعلم كم الساعة الآن.

ومع هذا، تُرى لماذا لا يخامرني شعورٌ حقيقيٌّ بالفقد؟ إن الأمر مختلف تمامًا عما قررتُ إخفاءه حتى الآن. باستثناء قدر يسير من الندم على ما اقترفته في حق أبي، لا أحس بأي ألم ولا معاناة تذكر. ولكن لا

بد أن يكون لهذا الفقد آثارٌ جمّة. فالعالم كله يتحرك وفق نظام الساعات. حاولتُ أن أجول بخيالي إلى مساحات أوسع قليلًا.

لا شك أن المدارس والشركات، وكذلك وسائل النقل والمواصلات وسوق الأسهم، جميعها تعاني الآن من فوضى عارمة.

ولكن ما هذا؟ لا أثر يُذكر على المستوى الفردي! يبدو أن حياة فرد (ومعه قط أليف) لا ترتبط كثيرًا بالساعات وما يتبعها من وقت وزمن.

سألت ألوها:

- تُرى، ما الذي استدعى وجود الساعات في المقام الأول؟

- سؤال جيد. ولكن، قبل الحديث عن الساعات أصلًا، فالزمن ذاته لا وجود له إلا عند البشر.

- هممم؟ ماذا تعني؟ لا أفهم ما تقوله على الإطلاق.

وإذ رآني محتارًا، تابع ألوها حديثه قائلًا:

- أعني أن مفهوم الزمن نفسه ليس سوى قاعدة اخترعها البشر وحددوا ملامحها بينهم فقط. صحيح أن ثمة ظاهرة طبيعية هي دورة شروق الشمس وغروبها. ولكن وحدهم البشر، من بين الكائنات كلها، الذين حددوا لها «وقتًا» وأعطوا له مسميات مثل الساعة السادسة، الساعة الثانية عشرة الساعة الرابعة والعشرون إلى آخره.

- هذا صحيح.

- ولذلك، تظنون أنتم أيها البشر أنكم ترون العالم على حقيقته.

ولكن، في الواقع أنتم لا ترون إلا عالمًا نشأ على تعريفات وضعتموها لتلائم ظروفكم أنتم وحسب. من أجل ذلك فكرتُ هذه المرة، بداعي التغيير، أن أجعل الناس تجرب عالمًا اختفى منه مفهوم الزمن الذي اخترعوه لراحتهم.

- تجرب؟ بهذه الرعونة؟

- حسنًا، أتمنى لك يومًا طيبًا! رغم أن مفهوم اليوم أو الزمن قد اختفى على أي حال!

ثم اختفى ألوها بعدما ترك وراءه هذه الكلمات المستهترة.

حين تُكتب مئة عام من الأحداث في كتب التاريخ، يمكن تلخيصها في عشر صفحات فقط. بل لا يتجاوز ذكرها سطرًا واحدًا في بعض الأحيان.

وعندما علمتُ أن ما تبقى من حياتي لا يتعدى أيامًا معدودات، قررت أن أُفكر في الساعة التي أعيشها الآن لا بوصفها ستين دقيقة، بل ثلاثة آلاف وستمئة ثانية. ولكن، الآن، بعد اختفاء الساعات، لم يعد لمثل هذا الأمر معنى.

وسأكون صريحًا، حتى الإحساس بما يُسمى أيام الأسبوع، أصبح موضع شك. ومع ذلك يأتي الخميس بعد الأربعاء، وبما أن الصباح قد أشرق بالفعل، فلا بد أن اليوم هو الخميس. رغم أن الأيام نفسها ليست سوى أسماء قررها الإنسان ووهبها تعريفًا.

ولأنه لم يكن لديّ ما ينبغي فعله في هذه اللحظة، قررت تزجية الوقت. ولكن، ما من وقت لتزجيته! فإن حاولت أن أبدد وقتي هباء، فلا وجود لوقت هنا ليكون هباء. ولم يبق لدي ما أفعله.

كم دقيقة مرت منذ استيقظتُ؟ كعادتي دائمًا ألقيتُ نظرة سريعة على ساعة المنبه بجوار السرير، ولكنها لم تكن هناك. عالم بلا ساعات! يجرفني تيار الزمن الذي لا أراه إلى ما لا نهاية، ويشعرني بأنني جزء من الماضي.

وعندما تأملت الأمر مليًا، أدركتُ أن الإنسان يأكل، ويعمل، وينام، ويصحو وفقًا لذلك الشيء الذي اتفق على تسميته بالوقت. أي أن حياته كلّها تُبنى على التكيّف مع هذا المفهوم. لقد اخترع الإنسان بنفسه شيئًا يُقيّده، وأطلق عليه اسم الوقت؛ سنين وشهور وأيام، واخترع الساعة، ليتأكد من التزامه بهذا القيد.

الالتزام بشيء محدد، يعني في الوقت نفسه انعدام الحرية. علّق الإنسان هذا القيد على الحائط، ووضعه في غرفته، ولم يكتف بذلك بل وضعه في كل مكان يكون فيه، وفي نهاية المطاف قرر أن يضعه حول معصمه.

ولكنني الآن فقط، بدأت أفهم جيدًا سر هذا الفعل.

فالحرية يصاحبها القلق.

وقد وجد الإنسان طمأنينة في وجود ما هو ثابت ومتّفق عليه، ولو كان على حساب حريته.

وبينما كنتُ أتأمل هذه الفكرة، دنا مني كرنب وراح يحتك بجسدي. واحتكاكه بي، كما تعلّمت من طباعه، ليس عبثًا، بل يدلّ على أنه يطلب شيئًا.

- ماذا حدث يا كرنب؟ هل شعرتَ بالجوع؟

عندما يفعل هذا صباحًا، تكون تلك علامة على أنه جائع على الأرجح.

- كلا، سعادتك.

- ماذا؟

كان ردّه مفاجئًا، خاصة من قط، ثم أردف وهو يزفر زفرة عميقة:

- سعادة الوالي دائمًا يخطئ.

- سعادة الوالي؟!

من الواضح أنه يقصدني. إنه يعيش دور المسلسلات التاريخية حتى النهاية.

- عندما أرغب في التنزه، تظن أنني جائع، وحين أجوع تظنني أرغب في قيلولة، وإن أردت قيلولة حسبتني أريد اللعب. تفسيراتك دومًا تنحرف عن المقصود شيئًا فشيئًا، سعادتك.

- ماذا! هل هذا صحيح؟

واصل قطي العزيز كلامه وهو يومئ بعمق.

- صحيح، سعادتك. دائمًا ما تُظهر أنك خبير بمشاعر القطط، ولكنك في الواقع، تخطئ أكثر مما تصيب، سعادتك. فأنا أكون في ورطة كلما اقتربت مني، وتقول لي بنبرة متملقة هل أنت وحيد، رغم أنني لا أشعر بالوحدة مطلقًا، سعادتك. حسنًا الأمر لا يقتصر عليك وحدك يا سعادة الوالي، بل هي حال أكثر البشر، سعادتك.

لقد صُعقت! كنت أظن أنني وكرنبًا نعيش في انسجام تام وتفاهم عميقين بعد أربع سنوات كاملة من العيش المشترك دون رفيق سواه. كانت قدرته على التحدث أمر بالغ القسوة.

- أعتذر لك عن ذلك يا كرنب. حسنًا، أخبرني الآن، ماذا تريد؟

- أريد الخروج في نزهة، سعادتك.

يعشق كرنب التنزه منذ نعومة أظفاره.

تذكّرت كيف كانت والدتي تضحك دائمًا وتقول:

- إنه يشبه الكلاب أكثر مما يشبه القطط!

ثم تصحبه كثيرًا في نزهات لا تنتهي.

أخبرته أن ينتظرني ريثما أستعد للخروج، ثم دخلت دورة المياه، وبينما كنتُ أقضي حاجتي، قفز كرنب على مقبض الباب ثم فتحه ودخل.

- هيا بنا نتنزه ...

- قلت لك فهمت!

وأخرجته من الحمام، وانتهيت من التبول سريعًا، ثم غسلت يدي ووجهي في حوض الاغتسال. وعندما كنتُ أغسل وجهي بالمياه، شعرت بنظراته من خلفي. يا له من ضغط نفسي رهيب!

التفتُّ خلفي، فوجدت كرنبًا يختلس النظر إليّ من خلف عامود الباب.

- قلت لك، أريد نزهة!

- كرنب! أرجوك انتظر قليلًا.

كانت طلبات كرنب لا تزيد عن قول «مياو» في الماضي، ولكن عندما تحولت إلى كلمات، صارت الأمور صعبة.

خلعت ملابسي على عجل، وأخذت حمامًا سريعًا. وضعتُ الشامبو على يدي، وفركته ليصنع رغوة ثم غسلتُ به شعري جيدًا. أغمضتُ عيني، فظهرت أشباح خلف ظهري! هذا هو المشهد المبتذل المعتاد في أفلام الرعب، ولكنني أشعر ببرودة مشابهة لذلك خلف ظهري. تُرى ما هذه البرودة؟! فتحتُ عيني قليلًا لكيلا تدخلها الرغوة، لأجد كرنب يختلس النظر من فرجة باب الحمام الضيقة ويهمس:

- نزهة...

قاومت رغبتي في الصراخ في وجهه قائلًا: هل أنت متعقب مهووس؟! وأغلقت الباب بعنف ثم أكملت غسل شعري. أنهيت وجبة الإفطار، كوبًا من الحليب وموزة واحدة فقط، ثم ارتديتُ ملابسي على عجل.

ظل كرنب يخدش باب مدخل البيت بحوافره، وهو يصرخ:

- افتح لي الباب، سعادتك! أريد أن أخرج، سعادتك!

فقررت أن أنهي الحد الأدنى فقط من الاستعدادات وخرجت به في نزهة.

كان الجو في الخارج مشمسًا بدرجة رائعة، ومثاليًّا جدًا للنزهة. وكان كرنب يخطو أمامي بخفةٍ ورشاقة.

تذكّرت كيف كانت أمي تخرج دائمًا مع كرنب. وعندما تذكرتُ هذا، شعرت أنه يعرف عن أمي ما لا أعرفه. فقررت اليوم أن أتحلّى بالصبر، وأرافقه بهدوء.

ثم عندما فكرتُ جيدًا، أدركت لماذا يتحدث كرنب بلغة المسلسلات التاريخية.

إنها أمي.

كان ذلك في بداية مجيء كرنب لبيتنا قطًا صغيرًا. بدأ فجأة شغف أمي بالمسلسلات التاريخية التلفزيونية (أمي شأنها شأن الكثير من الأمهات اللواتي يتشبثن بشغف معين فجأة ثم ينطفئ دون سابق إنذار).

كانت تُشاهد مسلسلات مثل الأمير كومون ميتو، والقائد العام المشاغب، والسيد كين من تو ياما.

ثم حاولت إقناعي بمشاركتها في شغفها هذا وهي تتحدث عن نظريتها غير المفهومة عن الرجولة اليابانية قائلة:

- هكذا يجب أن يكون الرجال!

فكنتُ أرفض بأدب قائلًا:

- عذرًا يا أمي، فأنا أحب مشاهدة الأفلام وليس المسلسلات.

وعندما لم تجد من يشاركها المشاهدة، كانت تقضي يومها كله من الصباح حتى المساء أمام التلفزيون واضعة كرنب على حجرها تشاهد المسلسلات. وعلى الأرجح تعلم كرنب «لغة البشر» من تلك المسلسلات.

وفي النهاية أصبحت لغة كرنب لغة يابانية عجيبة، هي مزيج غرائبي من كلام أمي ولهجة المسلسلات التاريخية. آه، يا له من مسكين. ولكنها لغة طريفة على أي حال، لذا قررتُ أن أتركه دون أن أصحح له. كنت غارقًا في هذه الأفكار وأنا أتأمل مظهر كرنب من الخلف وهو يسير أمامي بخطوات منتظمة.

كان الطريق الذي اختاره كرنب يكتظ بالأعشاب البرية التي نبتت عشوائيًا على جانبي الطريق، بينما تفتحت زهور الهندباء البرية أسفل أعمدة الإنارة. تذكرت أن الربيع بات وشيكًا. اقترب كرنب من الهندباء وأخذ يشم عطرها باستمتاع. فقلت له:

- إنها زهور الهندباء.

فظهرت الدهشة على وجهه، وقال:

- هل هذه الزهور اسمها هندباء، سعادتك؟

- ألا تعرفها؟

- نعم، سعادتك!

- إنها زهرة تتفتح في الربيع.

- لقد اتضح الأمر، سعادتك ...

بعد ذلك أخذ كرنب يقترب من كل زهرة متفتحة على جانب الطريق ويسألني بإلحاح:

- وماذا تسمى هذه، سعادتك، وهذه، سعادتك؟

كانت نباتات الطريق العشوائية قد تفتحت أزهارها بتواضع وسط الرياح الشمالية معتمدة على دفء ضئيل آتٍ من أشعة شمس خافتة. أخذتُ أعلّم كرنب أسماء الزهور معتمدًا على ذاكرتي: بِيقْيَة مزروعة، وجراب الراعي، وبابونج، وأقحوان باريس، ولاميون ملتف الساق.

ومن العجيب أن تُستدعى ذاكرة الطفولة البعيدة التي نسيتها تمامًا واحدة بعد أخرى بهذه البساطة.

وعلى ذكر ذلك، أخبرتني أمي أنني كنتُ في طفولتي أسألها بإلحاح: «ما اسم هذا؟ وما اسم تلك؟» على الأرجح أنني كنتُ أشبه كرنب في إلحاحه الآن. ثم انتبهت إلى أي حد كانت أمي صبورة تجاه فعلي ذلك كل يوم!

حكت لي أمي بعد أن كبرتُ قائلة:

- كنتَ تجد زهرة فتجلس بجوارها. ثم تقوم لتجد أخرى فتجلس بجوارها، وبذلك لا تنتهي النزهة بسهولة مما أرهقني كثيرًا.

ولكنها كانت تضيف ضاحكة وهي تنظر بشوق وحنين إلى مكان بعيد:

- ولكنني كنتُ أشعر وقتها بسعادة غامرة.

بعد أن أخذنا وقتًا طويلًا، وصلنا أنا وكرنب إلى الحديقة الواقعة على قمة التل.

من موقعنا يمكننا رؤية البيوت السكنية المتراصة على جانبي الطريق الذي صعدناه لتوّنا، وتنتهي تلك اللوحة بمنظر البحر المترامي، بألوانه الزرقاء المتدرجة. حديقة صغيرة وأنيقة، فيها أرجوحة، ولعبة الانزلاق للأطفال، ونوَّاسة. وهناك بعض الأطفال يلهون في ركن مملوء بالرمل تحت أعين أمهاتهم.

أخذ كرنب جولته المعتادة، يدور في الحديقة بكاملها، قبل أن يسمح للأطفال باللعب معه، ولكن باعتدال، ثم اقترب من عجوزين يجلسان على دكة ويلعبان الشوغي (النسخة اليابانية من الشطرنج) وقال لهما:

- أرجو أن تفسحا لي المكان، سعادتكما!

قلقتُ من أن يصاب العجوزان بهلع عند رؤيتهما فجأة «قطًا يتكلم»، لكن العجوزين تبادلا النظر وابتسما. يبدو ألا أحد من البشر غيري قادر على سماع كلام كرنب.

فقلت له:

- توقف يا كرنب فهذان السيدان يجلسان على الدكة الآن.

ولكن كرنب لم يستسلم وألحّ قائلًا:

- هذا مكاني المفضل دائمًا، سعادتك.

ونفد صبره، فقفز أعلى لوحة الشوغي وبدأ يبعثر القطع بأقدامه هنا وهناك. ظهر الاستنكار على وجهي العجوزين بالتأكيد، إلا أنهما ابتسما ابتسامة مريرة ثم تخليا عن الدكة وارتسم على وجهيهما تعبير يقول: كما هي عادته.

طأطأتُ رأسي معتذرًا للعجوزين، بينما كان كرنب ينظر إليّ بطرف عينه وهو يجلس باسترخاء فوق الدكة التي بدأ دهانها الأزرق يتقشّر، وأخذ يلحس قدميه الأماميتين.

ولمّا عرفت أن كرنبًا لن يتحرك لبعض الوقت، جلست بجانبه، وأخذتُ أتأمل، في شرود، البحر الذي يتمدد بعيدًا إلى ما لانهاية. عالم من السلام يستمر بلا حدود. نظرت إلى برج ساعة الحديقة كعادتي. كما توقعت، الساعة غير موجودة. لم أستطع الحكم هل حالة السلام هذه ناشئة عن انعدام الوقت الذي يشكل قيدًا على العالم، أم أنها موجودة هنا في المعتاد؟ تقبّلتُ فكرة عالم بلا ساعات، أحسستُ بالهدوء كأنني تحررت من قيد خفي.

يبدو أن كرنبًا انتهى من تمشيط فروته بلسانه فبدأ يتحدث معي.

- ولكن الإنسان كائن عجيب، سعادتك.

- هل هذا رأيك؟

- ما ضرورة إعطاء الزهور أسماء، سعادتك؟

- لأن الأنواع كثيرة، ويجب تمييزها.

- حتى إن وجدت أنواع عدة، لماذا يجب إعطاء اسم لكل نوع منها؟ ألا يكفي أن تكون الزهور كلها «زهورًا»؟

كلام منطقي. لماذا يصر البشر على تسمية الزهور؟ بالطبع ليس الزهور فحسب، بل ما ضرورة تسمية جميع الأشياء والألوان والأشكال بل حتى البشر؟

والأوقات كذلك. تشرق الشمس ثم تغرب. حتى هذه الظاهرة الكونية الطبيعية صارت يومًا وشهرًا وسنة، لأن البشر أعطوها من أنفسهم «أسماء». بل وصلت التسميات إلى ساعة ودقيقة وثانية.

في عالم كرنب لا وجود للزمن. ولا وجود للساعات بالتأكيد. لا مواعيد، لا تأخير. لا وجود للصف الأول والصف الثاني والصف الثالث، ولا لعطلة الصيف ولا عطلة الشتاء ولا عطلة الربيع. لا وجود سوى للتغيرات الكونية الطبيعية في المركز، وتأثيرها البيولوجي على الأجساد من جوع وعطش ونعاس.

أخذتُ أفكر بهدوء في هذا العالم الخالي من الساعات، تنهار داخلي الكثير من القواعد التي وضعها البشر. فأنتبه إلى عدم وجود المقاييس

الأخرى مثل اللون ودرجة الحرارة، تنهار كما انهار الوقت تمامًا. فإن هي إلا «أسماء» أطلقها الإنسان على ما يشعر به جسده.

إذا نظرنا إلى العالم من منظور الكائنات غير البشرية، فلن نجد فيه وجودًا للساعة أو الدقيقة أو الثانية، ولا للألوان مثل الأزرق أو الأحمر أو الأصفر، ولا لمفاهيم مثل حرارة الجسم أو حرارة الطقس. فكل هذه مفاهيم تخص الإنسان فحسب. لكن، إذا لم يكن في هذا العالم أصفر ولا أحمر، فهل يعني ذلك أن كرنبًا لن يجد زهور الهندباء جذابة؟ أو أن الورود لن تبدو له جميلة؟

- ولكن رغم هذا يا كرنب أعتقد أن أمي التي اعتادت مرافقتك في هذه النزهات يوميًّا، كانت إنسانة عظيمة.

- ماذا تعني، سعادتك؟

- لأن مرافقتك في أوقات نزواتك المتقلبة أمر شاق جدًا. أظن أن أمي كانت تحبك حبًا حقيقيًّا.

- أمي؟

- بل أمي أنا. ولكنها أمك أنت أيضًا بمعنى من المعاني.

- يا ترى من تعني بكلمة ... أمي، سعادتك؟

فقدتُ النطق من الصدمة.

لقد نسي كرنب أمر أمي.

هذا أمر مستحيل الحدوث. كلا بل هو أمر يجب ألا يحدث بأي حال.

عاد إلى ذاكرتي ذلك اليوم الذي عادت فيه أمي إلى المنزل ومعها كرنب، التقطته من الطريق. كان على وجهها تعبير مبهم، ربما كان حزنًا وربما كان ألمًا. ولكنه وجه مفعم بالأمل. أمي التي كانت تشاهد التلفزيون دائمًا مع كرنب. أمي التي كانت تمسح على ظهره حتى ينام فوق حجرها. أمي التي كانت تنام معه في نهاية المطاف، وتتكور هي وكرنب فوق الأريكة. عاد إلى ذاكرتي وجه أمي الهادئ، فشعرتُ بوخزة في صدري.

- ألا تتذكر أمي حقًّا؟

- من تكون، سعادتك؟

بات كرنب مدهوشًا وارتسمت الحيرة على وجهه كأنه «يقول ماذا يقول هذا الرجل!» إنه لا يتذكرها حقًا. شعرتُ بالألم أكثر من الحزن! وزادت ملامح كرنب البريئة من قسوة الموقف أكثر.

كنتُ في مكان ما من أعماق قلبي، أؤمن بأن الحيوانات الأليفة لا تنسى صاحبها أبدًا كما في «قصة الكلب هاتشي». هل هي مجرد أوهام؟ هل سينساني كرنب أنا أيضًا عمّا قريب؟ هل سيأتي يوم أختفي فيه من عالمه نهائيًّا؟

بدأتُ أدرك فجأة كم كان الوقت ثمينًا، رغم أنني لم أكن أعيره أي اهتمام. كم صباحًا بقي لي مع كرنب؟ كم مرة سأسمع أغنيتي المفضلة فيما تبقى لي من عمر؟ كم فنجان قهوة سأشرب؟ كم وجبة؟ كم تحية صباح؟ كم عطسة؟ كم بقي لي من ضحكات؟

لم أفكر بهذه الطريقة من قبل، حتى في حالة أمي. لو كنتُ أدرك،

لربما كنتُ سأمنح كل لحظة معها قدرها. لكن أمي رحلت، قبل أن أتعلم هذه الحقيقة الواضحة.

هل أنجزتُ حقًّا أمرًا ذا قيمة خلال الثلاثين عامًا التي انقضت من عمري؟ هل التقيتُ من كنتُ أرجو لقياه بصدق؟ وهل نقلتُ لمن يهمّني أمرهم كلمات تعكس اهتمامي الصادق؟

بدلًا من الاتصال بأمي مرة، كان أقصى ما أستطيعه هو إعادة الاتصال بمن فاتني الرد على مكالمته الواردة. قضيت أيامي أعطي الأولوية لما أمام عيني من توافه الأمور، مؤجلًا دومًا ما كان الأجدر بالرعاية والاهتمام.

وكلما استدرجتني دوامة التفاصيل اليومية، فقدت، شيئًا فشيئًا، الوقت الذي كان يجب أن أخصصه لفعل الأمور الجوهرية. والمخيف في الأمر أنني لم ألحظ قط أن هذا الوقت المهمّ كان يتلاشى من بين يديّ. ولو أنني فقط توقفتُ لحظة، وابتعدت عن مجرى الزمن المتسارع، لأدركت على الفور أي الاتصالين هو الأهمّ في حياتي.

نظرتُ إلى كرنب.

وفي غفلةٍ مني، تكوّر فوق الدكة وغطّ في نوم عميق.

لفّ أطرافه البيضاء الناصعة داخل جسده المتناسق، بألوانه الثلاثة: الأبيض والأسود والرمادي وتكوّر. لمستُ ذلك الجسد الصغير، فكان قلبه يخفق بدقات منتظمة، بنبض قويٍّ لا يمكن تصوّره من هيئة نومه الهادئة.

يقال إن قلب أي حيوان من الثدييات ينبض في حياته ما يقارب مليارَي نبضة.

يعيش الفيل خمسين عامًا، والحصان عشرين، والقط عشرًا، والفأر سنتين. ولكنها جميعًا، ينبض قلبها ملياري نبضة بمنتهى المساواة، ثم تموت. أما الإنسان، فمتوسط حياته سبعون عامًا. فهل يا ترى وصل قلبي إلى ملياري نبضة؟ كانت حياتي، حتى وقت قريب، تسير من الماضي مرورًا بالحاضر ثم إلى مستقبل بلا نهاية له من وجهة نظري. ولكن اتضح أن مستقبلي محدود، فبدأت أشعر أن المستقبل هو الذي يزحف قادمًا نحوي. أمشي فوق مستقبل مقرر بالفعل، أو هذا ما خيل إليّ.

كم هو أمر مثير للسخرية، يقال لي إنني لن أعيش طويلًا، ثم يُلقى بي في عالم بلا زمن، في هذه الحالة بالذات أقرر لأول مرة في حياتي، أن أتأمل مستقبلي بإرادتي.

بدأ طرف رأسي الأيمن يؤلمني شيئًا فشيئًا، وبدأت أنفاسي تختنق.

لا أريد أن أموت الآن. أريد أن أواصل الحياة.

لذلك سوف أجعل شيئًا آخر يختفي من هذا العالم غدًا.

سأسلب من مستقبلي شيئًا مقابل إطالة حياتي يومًا!

ظل كرنب يغطّ في نوم عميق.

وحين خلت الحديقة من الأطفال، وبدأت الشمس تميل نحو الغرب، استيقظ أخيرًا. ثم تمطّى فوق الدكة بدرجة أثارت قلقي، كأنّ جسده لا يقوى على احتمال مزيد من التمطّي، وأطلق تثاؤبًا طويلًا مبالغًا فيه، قبل أن يدير ناظريه إليّ ببطء، وقال بنبرة متعجرفة وهو لم يتخلّص بعد من أثر النوم:

- سعادة الوالي، حان وقت العودة، سعادتك!

ثم قفز عن الدكة، وبدأ يهبط المنحدر بخطى بطيئة.

اتجه كرنب نحو السوق التجاري الممتد على جانبي الطريق المؤدي إلى محطة القطار. وعندما وصلنا إلى مطعم السوبا عند مدخل السوق، صرخ مياو (مرحبًا!). فخرج صاحب المطعم حاملًا بيده بعضًا من مسحوق سمكة تونة مجففة. وحين حصل كرنب على حصته، صرخ مرة أخرى مياو (جيّد!)، ومضى في طريقه. وفي تلك اللحظة لم أعد أعلم من يروّض الآخر، أنا أم هو!

يبدو أن لكرنبًا شعبية كبيرة في السوق، فقد كان الجميع يوجهون إليه الحديث متى مرّ. أما أنا، فبدوت خادمه المطيع، رغم أنني في الحقيقة سعادة الوالي! ولكن الأمر الجيد الوحيد هو أنه بفضل شعبيته تلك، تمكّنتُ من شراء الخضروات والأسماك وباقي مكونات الطعام بأسعار مخفضة. تخفيضات القطط!

قلت له وأنا أحمل الأكياس الثقيلة المملوءة بالمشتريات:

- في المرات القادمة لن أذهب للتبضع إلا بمرافقتك يا كرنب.
- لا مانع من ذلك، سعادتك. بشرط أن تقدّم لي ما أحبه من الطعام.
- ألا أقدم لك وجبتك المفضلة دائمًا؟ وجبة القطط.

وعندها وقف كرنب الذي كان يمشي أمامي ببطء، وقفة مفاجئة.

- ماذا حدث؟

بدا لي أنه يرتعد من الغضب.

- تذكّرتُ الآن، سعادتك! ... لدي ما كنتُ أريد إبلاغك به منذ وقت طويل سعادتك!

- ماذا؟ أخبرني أرجوك!

- وجبة القطط! ماذا تعني هذه الوجبة؟

- ماذا؟

- أليست بواقي طعام البشر، سعادتك! وألصق هذا الاسم بها عنوة!!!

وربما أثار الغضب مشاعره، فراح يعوي ويشحذ مخالبه بعنف في عامود الإضاءة الذي بجانبه.

هل يكره وجبة القطط لتلك الدرجة؟ وبينما كنتُ أفكر بعمق في قواعد البشر الأنانية، لمحت عند نهاية المنحدر البناية الصغيرة التي نسكن فيها.

دخلنا الشقة وتناولنا معًا سمكًا مشويًا (وليس وجبة القطط)، ثم عدنا إلى تيار الزمن الذي ينساب ببطء وهدوء.

- اسمع يا كرنب.

- ماذا، سعادتك؟

- ألا تتذكّر أمي حقًا؟

- لا أتذكرها، سعادتك.

- حقًا؟ ... إنه أمر محزن.

- لماذا هو محزن، سعادتك؟

لم أستطع أن أشرح لكرنب «لماذا هو محزن؟»، كما لم يكن بإمكاني أن ألومه على نسيانها. لكنني أردت أن أبلغه أنه كانت هناك «ذكرى» بينه وبين أمي.

لذا، وقفتُ وأخرجت صندوقًا من الورق المقوى من أعماق خزانة الملابس. داخل الصندوق المغطى بالغبار، ألبوم صور بلون عنّابي، قررت أن أعرض محتوى هذا الألبوم على كرنب.

تحدثتُ إلى كرنب بأحاديث كثيرة وأنا أقلب صفحات الألبوم.

هذا يا كرنب، الكرسي الهزاز العتيق الذي كنتَ تحبه كثيرًا. كان يهتز بك ببطء. هذا القط الصغير الذي يهتز فوق حجر أمي هو أنت. نعم أنت! كان هذا مكانك المفضل دائمًا. وهذه كرة الصوف التي كنت تحبها كثيرًا. كنتُ تلعب بها بلا ملل. وهذا الدلو القديم المصنوع من القصدير. كنا دائمًا نجدك متخفيًا داخله بكامل جسمك، تراقب أمي منه. وتلك هي المنشفة ذات اللون الفيروزي التي كنتَ تستخدمها، كانت المنشفة المفضلة لدي ولكنك سلبتها فباتت منشفتك الأثيرة. وها هي لعبة البيانو الصغيرة التي أهدتها أمي لك في أعياد الميلاد، آه، هذه الصورة! صورتك وأنت تعزف عليه. كان العزف عنيفًا بعض الشيء ولكنه كان رائعًا. ثم هذه الصورة أيضًا. شجرة أعياد الميلاد. كنتَ دائمًا تتحمّس عندما تبدأ أمي في تزيينها كل عام. كان تزيين الشجرة شاقًا جدًا بالنسبة أمي لأنك كنتَ سرعان ما تمزق كل زينة فور تعليقها. انظر إلى هذه الصورة! هذا أنت، تقفز على الشجرة. كنتَ سخيفًا جدًا. أنت شنيع يا كرنب. ولكن أمي، تبدو سعيدة.

أنهيت ألبومًا ثم انتقلت إلى التالي.

واصلت التحدث إلى كرنب.

حدثته أيضًا عن خس.

عن اليوم الممطر الذي جاء فيه خس. وعن موته، وعن إصابة أمي بالاكتئاب بعده. وعن اليوم الذي جاءت أمي به، أي بكرنب، إلى البيت. ثم عن الأيام السعيدة التي تلت ذلك اليوم. ثم حدثتُه أخيرًا عن المرض الذي أصاب أمي. ظل كرنب ساكنًا يستمع لي في صمت.

كنتُ من حين لآخر أسأله هل تذكر؟ ولكنه لم يتذكر أي شيء على الإطلاق. نسي كرنب كل شيء تمامًا.

ولكن رغم ذلك، توقفت عيناه على إحدى الصور.

ساحل البحر الجميل في ساعات الصباح الأولى. أنا مع أمي وأبي، نرتدي جميعًا زي اليوكاتا. أمي جالسة على كرسي متحرك، وعلى حجرها يجلس كرنب متعكر المزاج. ثم كنتُ أنا وأبي نضحك ضحكة بها لمسة من الإحراج. أن أضحك أنا وأبي معًا فهذا أمر نادر الحدوث، مما جعلني أتأمل الصورة بدوري.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها صورة لأبي، فسألني كرنب باهتمام عميق:

- من هذا، سعادتك؟

فأجبته باقتضاب:

- إنه أبي.

لم أكن أريد التحدث عن أبي كثيرًا.

- وأين التُقطت هذه الصورة؟

- في رحلتنا إلى الينابيع الساخنة، إن لم تخني ذاكرتي.

نظرت إلى التاريخ المطبوع على الصورة، فوجدته قبل أسبوع واحد فقط من وفاة أمي.

- دخلت أمي المستشفى ولم تعد قادرة على الحركة، ولكنها أبدت فجأة رغبتها في الذهاب إلى الينابيع الساخنة.

- ولماذا طلبت ذلك، سعادتك؟

- أظن أنها أرادت أن تترك ذكرى سعيدة في نهاية حياتها. خاصة أنها لم تستمتع برحلات كثيرة في حياتها.

ظل كرنب يحدق في تلك الصورة كأنه سيلتهمها بعينيه.

- هل تذكرت شيئًا؟

- هممم ... يتملكني شعور غريب، سعادتك!

ربما كان كرنب قد بدأ يستعيد أجزاء من ذاكرته. شعرتُ برغبة عارمة في مساعدته على استرجاع ذاكرته، فقررت أن أحدثه بمزيد من التفصيل عن هذه الصورة.

حدث هذا قبل أربع سنوات.

باتت أمي في حالة صحية ميؤوس منها؛ تعاني كل يوم من التقيؤ والأرق. وفي صباح أحد الأيام، استيقظت واستدعتني فجأة ثم قالت لي:

- أريد الذهاب إلى أحد الينابيع الساخنة المطلة على البحر.

أصابتني الحيرة، فسألتها مرارًا إن كانت هذه رغبتها الحقيقية، فأصرت على أنها ترغب في الذهاب مهما كان. دهشتُ جدًا لأنها لم يسبق لها طوال حياتها كلها أن أصرت على تحقيق طلب لنفسها.

وبطريقة ما، استطعتُ إقناع الأطباء، وحصلت على إذًا للمبيت خارج المستشفى ليلة واحدة. ولكن واجهتنا مشكلة أخرى أصعب من إقناع الأطباء.

أصرت أمي على ذهاب أبي معنا فقالت:

- أريد أن أذهب مع الأسرة كلها، أنت وأبيك وكرنب.

لكن علاقتي بأبي مقطوعة منذ زمن، رغم حالة أمي الصحية، ولم نجتمع في مكان واحد. تجمدت علاقتنا أعوامًا طويلة ثم وصلت إلى حد لا يفلح معه أي محاولة للإصلاح. لذلك ترددت في الذهاب معه بالتأكيد، وترددت في مفاتحته بالأمر. ولكنني أدركت أيضًا أن هذه الرحلة ستكون الأخيرة لأمي. ولذلك قررت إقناع أبي.

- لن أشارك في هذا الغباء!

ظل أبي يكرر إجابته النمطية تلك بلا تغيير.

رغم شعوري العميق بالاستياء من موقفه هذا، فإنني في النهاية نجحتُ في إقناعه.

كانت آخر رحلة لأمي. فقررت أن أعد لها أعظم برنامج للرحلة، إذ لم أرافقها في أي رحلة من قبل. وقع اختياري على منطقة ينابيع ساخنة

تطل على البحر وتبعد مسافة تستغرق ثلاث ساعات بالقطار. مدينة ساحلية جميلة، تصطف على شاطئها الفنادق التقليدية ذات الذوق الرفيع، ويمتد فيها إلى ما لا نهاية شاطئ ضحل تداعبه أشعة الشمس اللطيفة.

كانت أمي كلما رأت صور تلك المدينة في إحدى المجلات، تكرر دائمًا:

- أمنية حياتي أن أذهب إلى مكان مثل هذا.

وكان النزل الذي حجزته بيتًا يابانيًا عتيقًا بُني منذ أكثر من مئة عام، أعيد تجديده مؤخرًا، ليصبح نزلًا تقليديًا جميلًا من الدرجة الفاخرة. يتألف من غرفتين فقط، ويمكن رؤية البحر من غرفة الطابق الثاني. ويمتد شاطئ البحر أمام حمامه المكشوف في الهواء الطلق، فيمكن للمرء أن يشاهد غروب الشمس وهو مسترخٍ فيه. فكرتُ أن أمي ستفرح كثيرًا، فحجزته رغم ارتفاع سعره.

وفي يوم الرحلة، غادرنا المستشفى وسط توديع الأطباء والممرضات. بعد طول انتظار، بدأت الرحلة التي جمعتنا نحن الثلاثة (والقط أيضًا).

داخل القطار، كانت أمي تراقبني أنا وأبي ونحن جالسين جنبًا إلى جنب دون أن نتبادل أي كلمة، رغم ضيق المقاعد. مرت ثلاث ساعات من الصمت المطبق، حتى أعلنت الإذاعة الداخلية للقطار أننا على وشك الوصول إلى منطقة الينابيع.

وبخطوات سريعة، دفعتُ كرسي أمي المتحرك، وتوجهنا إلى النزل.

ولكننا عندما وصلنا كانت الصدمة في انتظارنا؛ لم نجد حجزًا باسمنا، وغرفتا النزل مشغولتان بالفعل بنزلاء آخرين.

غضبت بشدة.

كررت مرارًا أنني أكدت الحجز في الهاتف. وأنها رحلة أمي الأخيرة. وأن ما يحدث غير منطقي. غير أن مالكة النزل ظلت تعتذر ببرود دون أن تقدم حلًا لهذا الوضع. وقعتُ في اضطراب عظيم. ولم أملك ما أعتذر به لأمي.

ولكنها قالت لي مبتسمة:

- لا تشغل بالك أبدًا.

ولكنني لم أسامح نفسي على هذا الخطأ. وأوشكتُ على البكاء من الخزي والغيظ. وظللت متجمدًا في مكاني لا أدري ماذا أفعل.

فجأة، ضربني أبي بيده القوية على كتفي قائلًا:

- أرفض تمامًا النوم في العراء.

ثم انطلق يعدو. ذُهِلت لحظات من سلوكه المفاجئ، ولكنني سرعان ما ركضتُ خلفه.

أخذ أبي يدور على النُزُل والفنادق المتراصة جنبًا إلى جنب، واحدًا بعد الآخر ويسأل عن غرف شاغرة. لم يسبق لي رؤية أبي إلا جالسًا في محل الساعاتي إلى ما لانهاية يصلح الساعات في صمت، فأصابني سلوكه هذا بدهشة أجمتني تمامًا. حتى عندما كان يحضر مهرجان الرياضة السنوي في المدرسة، كان يجلس بلا حراك كصخرة جامدة. لذلك، كانت هذه أول مرة في حياتي أراه يدور ويجري بهذا النشاط.

وسط منطقة الينابيع الساخنة، وأنا أنظر إلى جريه السريع، الذي لا

يتلاءم مطلقًا مع بنية جسمه الصغير السمين، عادت إلى ذاكرتي ما كانت تقوله أمي لي دائمًا عنه:

- رغم مظهره هذا، ولكن أباك كان عدّاءً سريعًا في شبابه.

كان اليوم هو نهاية الأسبوع في موسم الذروة، ولذا كانت كل الفنادق مكتملة الحجز. لم نقابل سوى بالرفض بعد الرفض، ومع ذلك، ظللنا أنا وأبي ندور ونلف على الفنادق. أحيانًا نقسّم الفنادق بيننا، وأحيانًا أخرى نذهب معًا، نحني رأسينا متوسلين. لا يمكن أن نسمح بأن تنام أمي في العراء، فهذه آخر رحلة في حياتها. كانت تلك اللحظة هي الأولى منذ كبرتُ، التي أتفق فيها مع أبي، ويتحد قلبانا معًا على الهدف نفسه.

أخذنا ندور ونلف ونبحث في فنادق الينابيع الساخنة المطلة على ساحل البحر إلى أن عثرنا أخيرًا على نزل به غرفة شاغرة. كان الظلام قد حل بالفعل، فلم نستطع رؤية واجهة النزل جيدًا، ولكن من نظرة واحدة أدركتُ أنه نزل قديم متهالك جدًا. وكان المبنى، كما توقعته، قديمًا، والأرضية تصدر صريرًا عند المشي فوقها.

ولكن أمي قالت بفرح:

- يا له من نزل رائع!

شعرت بالألم حين فكرت أنني أنا السبب في أن تبيت أمي في نزل بهذا المستوى، وكدت أختنق. ولكن لم يكن بيدي حيلة أخرى، فلا يمكن أن نسمح بأن تنام أمي في العراء كما قال أبي. قررنا المبيت في هذا النزل لأنه ليس أمامنا خيار آخر.

كان النزل قديمًا ولكن المالكة وزوجها في منتهى الطيبة. لم تكن الوجبات فاخرة ولكنها لذيذة بُذل في صنعها جهدًا كبيرًا. ابتسمت أمي كثيرًا وهي تكرر: طعام طيب، طعام لذيذ. وكان وجهها المبتسم هذا سببًا في التخفيف قليلًا من مشاعر الأسف التي اعترتني.

وفي تلك الليلة، نمنا نحن الثلاثة معًا في غرفة واحدة، على فرش متجاورة. لم نفعل ذلك منذ عشرين سنة!

تذكرتُ، وأنا أنظر إلى السقف القديم ذي الألواح الخشبية، البيت الذي كنا نسكنه عندما كنتُ في المدرسة الابتدائية. كانت غرف البيت قليلة فكنا دائمًا ننام جميعًا في نفس غرفة النوم الوحيدة بالطابق الثاني. كنا ننام معًا على الأرض جنبًا إلى جنب على فرش ثلاثة متلاصقة.

بعد مرور عشرين عامًا، ها نحن ننام مرة أخرى تحت سقف واحد وننظر إليه بهذه الطريقة. كان إحساسًا عجيبًا. كنتُ متأكدًا أن هذه الليلة ستكون آخر ليلة نقضيها معًا. وحين فكرتُ في ذلك، لم أستطع النوم. وعلى الأرجح أن أبي، وكذلك أمي، لم يناما أيضًا. كان الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه داخل الغرفة الضيقة المظلمة، هو أنفاس كرنب النائم الوحيد، يتردد صداها ممتزجًا مع صوت أمواج البحر.

أخيرًا انقشع الظلام عن الدنيا. كانت الساعة الرابعة أو الخامسة. تسللتُ من فراشي وجلست على المقعد المجاور للنافذة. فتحتُ فرجة ضيقة في الستارة ونظرتُ منها إلى الخارج، ويا لها من دهشة! خارج نافذة هذا النزل المتهالك، كان المحيط العملاق يمتد في منظر رائع. كان نزلًا

عثرنا عليه أنا وأبي بعد بحثنا الطويل في ظلام الليل، لذا لم أتخيل مطلقًا أنه يقع أمام المحيط مباشرة بهذا الشكل!

ظللتُ أتأمل البحر المغلف بأشعة ضبابية تشبه الخيال، إلى أن استيقظ أبي وأمي. وعندما التفتُّ للخلف رأيتُ تحت أعينهما هالات سوداء، لم يستطع أحد منا النوم كما توقعت.

كانت أمي ترتدي زي اليوكاتا التقليدي وعندما رأت البحر الممتد خارج النافذة قالت:

- هيا نلتقط صورة لنا. أحب البحر في الصباح.

أيقظت أمي كرنب النائم، ثم وضعته عنوة على حجرها، وأصلحتْ من زي اليوكاتا، ثم خرجنا للبحر. دفعتُ الكرسي المتحرك متوجهًا به نحو البحر، كان الجو يميل إلى البرودة قليلًا مع عتمة خفيفة. طلبتْ مني أمي الاقتراب أكثر من البحر، ولكن الكرسي المتحرك لا يتقدم بسهولة لأن الرمال الرطبة والثقيلة أمسكت بعجلاته. ثم ظهرت فجأة شمس الصباح المتوهجة عند خط الأفق البحري، وبدأت تنير سطح البحر بأشعتها البراقة. سيطر هذا المنظر الرائع جدًا علينا فوقفنا بلا حراك جميعًا، وأخذنا نتأمل البحر المتألق بأشعة شمس الصباح.

عدنا إلى رشدنا تحت كلمات أمي وهي تقول:

- لنسرع بالتقاط الصورة.

أعددتُ الكاميرا، وتجهزت لالتقاط الصورة بالتبادل مع أبي، وعندئذ خرج مالك النزل عارضًا علينا أن يلتقط لنا صورة جماعية. البحر من خلفنا، وأمي تجلس على الكرسي المتحرك وسطنا، وأنا وأبي

نجلس القرفصاء على جانبيها. وكرنب الذي استيقظ أخيرًا يتثاءب تثاؤبًا كبيرًا على حجر أمي بمزاج متعكر.

ضغط المالك على زر التصوير وهو يقول:

- هيا ابتسموا! تشيز!

ذهبتُ إليه لآخذ منه الكاميرا قائلًا:

- شكرًا جزيلًا.

فقال:

- ليس بعد، لنلتقط صورة أخرى.

فعدتُ إلى مكان أمي وجعلت كتفي في كتفها.

- لنرَ ابتسامة أعرض! هيا، تشيز كيك!

وفي اللحظة التي ضحكنا فيها عنوة على دعابة المالك المتكلفة ضغط زر الكاميرا.

وهنا انتهيتُ من قص تفاصيل آخر رحلة للأسرة، ثم سألتُ كرنب:

- هل تذكرتَ شيئًا؟

- كلا، كما هو متوقع، أنا لا أذكر شيئًا، سعادتك!

- أحقًا؟ هذا أمر يا مؤسف يا كرنب.

- أعتذر، ولكنني لا أستطيع التذكر، سعادتك! ولكن ...

- ولكن؟

- أتذكر فقط أنني كنتُ سعيدًا، سعادتك!

- كنتَ سعيدًا؟

- أجل، سعادتك! أتذكر فقط أنني كنتُ سعيدًا، في ذلك الوقت، سعادتك! وقت التقاط هذه الصورة.

لا يتذكر كرنب أمي ولا أبي، ولا يتذكر النزل القديم المتهالك، لا يتذكر أي شيء. ولكنه يتذكر فقط أنه «كان سعيدًا».

ثم بعد أن أعدتُ النظر إلى الصورة مجددًا انتبهتُ إلى شيء.

«أمي لم تكن ترغب في رحلة».

بل كانت رغبتها الوحيدة، أن نتصالح أنا وأبي.

كانت أمنيتها الأخيرة أن ترانا نتحدث أنا وأبي ونقضي وقتًا ممتعًا معًا.

تأوهتُ بصوت عال بلا وعي.

كيف لم أفهم ذلك حتى الآن؟ فما من أدنى شك أن أمي، التي ضحت منذ ولادتي بكل وقتها من أجلي ومن أجل أبي، تستغل آخر وقت في حياتها لنفسها. حتى النهاية، كانت أمي تسخر آخر وقت في حياتها من أجلنا، أنا وأبي.

لقد خدعتني أمي! لم أنتبه حتى الآن. أعدتُ النظر إلى الصورة مرة أخرى، كان أبي في الصورة يضحك على استحياء. وأنا أيضًا بوجهي الذي يشبهه تمامًا، أضحك على استحياء. بينما كانت أمي تضحك بسعادة لا حدود لها.

عندما واصلتُ النظر إلى وجه أمي هذا، بدأ صدري يؤلمني. شعرتُ

بألم وحزن وخجل من نفسي، وعندما انتبهتُ وجدت دموعي تنهمر أمام كرنب. بلا صوت وبدون أن تتغير ملامح وجهي. كنتُ أبكي في هدوء وأنا أتأمل الصورة.

اقترب مني كرنب قلقًا، وقفز ليجلس على حجري. انتقلت حرارة جسده إلى جسمي، فبدأ قلبي يستعيد سكينته.

إن القطط كائنات عظيمة. رغم أن كرنب لا يتجاوب مع مشاعري دائمًا، ولكن حين أشعر بالألم حقًا، أجده بجانبي هكذا.

سألتُ نفسي: هل تنعدم «الوحدة» في عالم القطط مثلما ينعدم الوقت؟ بمعنى أن القطط ليس لديها إلا «وقت تقضيه بمفردها»، «ووقت تقضيه مع الآخرين». ربما كانت الوحدة خاصة بالإنسان فقط.

ولكنني وأنا أتأمل وجه أمي الباسم، خطرت لي هذه الفكرة:

من الوحدة، تنشأ المشاعر.

سألت كرنب وأنا أداعب جسده الدافئ:

- قل لي يا كرنب، هل تعرف الحب؟

- وما هو ... هذا الذي ذكرته، سعادتك؟

- ربما لا تستطيع القطط فهمه، ولكنه شعور بين البشر. الإعجاب بأحد، الاهتمام به، ورغبة البقاء معه طوال الوقت.

- وهل هذا شيء جيد، سعادتك؟

- إمم. أحيانًا يكون مزعجًا وأحيانًا عائقًا... ولكن، أجل إنه جيد. بل جيد جدًا.

أجل، نحن البشر نشعر بالحب.

وهذا الحب يتفرد به البشر، مزعج أحيانًا، وعائق أحيانًا، إلا أنه دعامة ضرورية لوجودنا، ويشبه الزمن كثيرًا. الزمن والألوان والوحدة، ثم الحب! أشياء ليس لها وجود إلا في عالم البشر فقط. وهذه الأشياء بالذات هي التي تجعلنا بشرًا.

في لحظة وصولي إلى هذا الاستنتاج، قفز إلى مسامعي صوت عقارب ساعة تدق: تيك تاك، تيك تاك.

فنظرتُ سريعًا إلى جانب السرير مدهوشًا، ولكني لم أجد هناك ساعة المنبه، كما توقعت.

شعرت أن شيئًا يحثني على المضي قدمًا، لكني لا أراه رأي العين. بدأت أسمع دقات تيك تاك، تيك تاك لا حصر لها، كأنها صوت نبضات قلوب كل البشر الذين يعيشون على هذه الأرض على اختلاف مشاربهم.

عقرب ثوانٍ يدور داخل المنبه.

العداؤون الذين يركضون مسافة مئة متر في رشاقة متناهية.

عقرب الثواني يدور بلا توقف. يُضغط على الزر.

ما يُضغط عليه هو زر إيقاف المنبه.

الأطفال الذين ضغطوا على الزر يعودون للنوم تحت الأغطية مرة أخرى.

في الحلم الذي يراه الأطفال، تدور عقارب ساعة الحائط بلا توقف فيأتي الصباح.

برج الساعة تنيره أشعة شمس الصباح.

وتحته ينتظر المحبون حبيباتهم.

وبجانبهم كنتُ أتوجه إلى المحطة بخطوات سريعة.

أنظر إلى ساعة يدي.

أقفز راكبًا الترام الذي يأتي متأخرًا قليلًا كعادته دائمًا.

وصلت إلى محل الساعاتي.

ساعات لا حصر لها وضعت في المحل الضيق.

صوت يدوي. تيك تاك، تيك تاك. صوت يقطع الوقت كالسيف.

أنصت إلى صدى هذا الصوت لبعض الوقت.

الصوت الذي طالما استمعتُ إليه وأنا صغير.

الصوت الذي شكّل قيدي، وصاغ حريتي معًا.

تتسلل السكينة إلى قلبي ببطء.

وما لبث هذا الصوت أن اختفى وهو يبتعد رويدًا رويدا.

أعدتُ ألبومات الصور إلى مكانها ثم قلت لكرنب:

- حسنًا يا كرنب هيا ننام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

فصاح كرنب:

- مياو.

- كرنب، ماذا حدث لك فجأة لتموء كالقطط؟

انتظرتُ أن أسمع منه ردًا يقول: «كانت مزحة مملة مني، سعادتك!» ولكنه لم يقل شيئًا.

كان كرنب لا يقول إلا مياو، مياو. فشعرتُ أن هذا نذير شر.

فجأة، سمعتُ صوتًا يأتي من خلفي:

- هل شعرتَ بخيبة أمل؟ سعادتك!

استدرتُ مذهولًا، فوجدت ألوها واقفًا أمامي، يلبس قميصًا أسود مطبوعًا عليه رسوم كئيبة للبحر وقت الليل، وابتسامته الصفراء تملأ وجهه.

- هل الوالي على وشك الموت، سعادتك؟

- مزاحك هذا لا يبعث على الضحك.

- أعتذر لك! يبدو أن السحر لم يدم طويلًا كما توقعت. لقد عاد إلى طبيعته! هل شعرت بخيبة أمل، سعادتك؟

- توقف عن تقليد كرنب!

- عذرًا، ولكن هذا هو الوقت المناسب.

قال ألوها هذا، ثم ابتسم مرة أخرى ابتسامته الصفراء. تلك الابتسامة الشيطانية التي رأيتُها ذات مرة.

نية شريرة؟ تلك أيضًا من الأشياء التي لا يعرفها سوى البشر.

ثم واصل ألوها قوله ضاحكًا:

- لقد قررتُ ما سيختفي من العالم في المرة القادمة.

خامرني شعور سيئ. بدأت أعاني من صعوبة التنفس.

الخيال قوة لا يملكها سوى البشر.

صور مرعبة تدور وتلف داخل عقلي الباطن.

صرختُ لاإراديًا:

- توقف! أرجوك!

كلا، بل لم أكن أنا الذي صرخ! بل الشيطان الذي له ملامح وجهي نفسها.

- تريد أن تصرخ هكذا، أليس كذلك؟

ثم ضحك ألوها.

- أتوسل إليك... توقف.

طلبتُ منه متوسلًا. وأنا أجثو على ركبتي بضعف.

قال الشيطان:

- لنجعل القطط تختفي من هذا العالم.

الجمعة
لو اختفت القطط من العالم

كان ذلك الجسد يرتعش.

يموء بصوت خافت متألم «مياو».

هل كان يستنجد بي؟ يطلب إنقاذه؟

لم أستطع فعل شيء، إلا تأمل الموقف في عجز.

حاول خس النهوض عدة مرات، ولكنه في كل مرة يسقط على الفور.

همستُ:

- لقد انتهى الأمر.

أجابتني أمي بنبرة حزينة:

- أجل. ربما كان كذلك.

مرت خمسة أيام منذ أن مرض خس.

توقف عن أكل التونة التي يعشقها، ولم يعد يشرب الماء. وازدادت ساعات نومه يومًا بعد يوم. وفي النهاية لم يعد يقوى على النهوض.

ورغم ذلك، كان خس يحاول أن يقف مرة بعد مرة.

سكبتُ في فمه قطرات من مزيج الماء ومشروبات الطاقة. فلحس منها شيئًا يسيرًا، ثم وقف مترنّحًا. جسدٌ لا طاقة فيه للوقوف، ومع ذلك نهض وسار ببطء، يرفع أقدامه المرتعشة، حتى وصل إلى أمي وسقط أمامها.

- خس!

لم أستطع احتمال المنظر، فصرختُ وأنا أضمه إلى صدري. جسده ما زال دافئًا. بات نحيلًا وخفيفًا لدرجة تثير الدهشة. جسدٌ فقد كل قواه فباتت عضلاته متراخية، يرتجف بنبضات منتظمة. جسدٌ يخبرني أنه الآن يتأرجح بين الحياة والموت.

تصاعد رعب هائل داخلي. لم أستطع أن أتقبل أن تُسلب حياته أمام عيني، فاضطربت اضطرابًا عنيفًا، ولم تعد ذراعاي تقويان على حمله، فوضعته بلطف على حجر أمي.

استقر جسد خس في حجرها، وبدأت حنجرته تطلق صوت خرخرة خفيفة، ثم صاح: مياو. وكأنه يقول: «هذا هو مكاني المفضل».

فمسحت أمي بحنان على جسمه.

أغمض خس عينيه، وتوقفت رجفته.

ثم نهض خس ببطء، كأنه للحظة عاد للحياة من جديد، وفتح عينيه باتساع وتأملني ثم تأمل أمي. وفي النهاية شهق شهقة كبيرة وتوقف تمامًا عن الحركة.

- خس! خس!

صرخت عدة مرات مناديًا عليه، محاولًا إقناع نفسي بأنه نائم وحسب، وأنه سيستيقظ إذا ناديتُ عليه أكثر.

ظلت أمي تمسح على جسم خس وهي تقول لي:

- كف عن الضجيج وامنحه بعض الهدوء. فلقد ذهب أخيرًا إلى حيث لا ألم ولا عذاب.

واصلت حديثها إلى خس قائلة ودموعها تنهمر على خديها:

- تألمت كثيرًا، تعذبت كثيرًا، أليس كذلك؟ آسفة، لم أستطع مساعدتك. لكن لا بأس، اطمئن، انتهى الآن الألم والعذاب.

وحين رأيت حالتها تلك، فهمت أخيرًا.

لقد مات خس.

مات خس مثلما مات جراد البحر والخنفساء اللذين ربيتهما في طفولتي فتوقفا عن الحركة.

لمستُ جسد خس وأنا في حالة ذهول.

ما زال دافئًا، ولكنه لا يتحرّك.

ما أثار انتباهي في ذلك الوقت لم يكن جثة خس ولا بكاء أمي، بل الطوق الجلدي الأحمر من الجلد الذي يلتف حول عنق خس. الطوق الذي أصبح ممزقًا لكثرة ما عضّه في محاولته لنزعه. كان هذا الطوق «حيًّا» منذ لحظات بصفته جزءًا من جسم خس، وبدا لي فجأة في هيئة قطعة جلد حمراء خشنة.

عندما لمست ذلك الطوق، هاجمتني واقعية الموت، فبكيتُ حتى الغثيان.

استيقظتُ والدموع تملأ عينيّ.

الظلام يملأ المكان. ربما كانت الساعة الثالثة فجرًا.

ظننت أن كرنب ينام بجواري، نظرتُ إلى جانبي، فلم أجده.

فزعتُ، ونهضتُ على عجل أبحث حولي، ثم وجدته ملتفًا حول نفسه بجانب قدمي، نائمًا في هيئة سيئة كعادته.

تنفستُ الصعداء.

ما زال كرنب بجانبي.

تذكرتُ ليلة أمس، حيث اقترح ألوها عليّ أن تختفي القطط من هذا العالم مقابل إطالة عمري.

الحياة مقابل القطط. لم أستطع تخيّل حياتي بدون كرنب. ظل كرنب رفيقي الوحيد منذ موت أمي قبل أربع سنوات. لا يمكنني التفريط فيه بأي حال. ولكن، ما العمل؟

لو اختفت القطط من العالم.

ماذا سيجني العالم من اختفاء القطط؟ وماذا سيخسر؟

تذكرت ما قالته أمي لي ذات يوم:

«لقد عاش البشر مع القطط أكثر من عشرة آلاف عام. وبعد أن ظلت القطط بجانب البشر كل هذا الزمن، بدأنا نفهم الأمر: لا يربي البشرُ القطط، بل تعيش القطط مع البشر».

استلقيتُ بجوار كرنب النائم متكوّرا حول نفسه، أتأمل وجهه.

ذلك الوجه النائم في طمأنينة عميقة. لا يتخيل، ولا في أحلامه، أنه قد يختفي من هذا العالم. تصورته يصحو فجأة ويقول لي على الفور: «أريد أن آكل، سعادتك!»

ولكن مع الاستمرار في تأمل ذلك الوجه النائم طويلًا، بدا كأنه يهمس لي: «من أجلك أيها الوالي، لا أمانع أن أختفي، سعادتك».

يقال إن البشر هم الوحيدون الذي يعرفون مفهوم الموت. إذ لا وجود لهذا الوعي المؤلم لدى الكائنات الأخرى، كالقطط مثلًا. ومع ذلك، فإن الإنسان يربي القطط، وهو يحمل على عاتقه وحده شعورًا بالحزن والخوف من موتها.

فرغم أن الإنسان يعلم علم اليقين أن القطط سرعان ما تموت، وتغرقه في هاوية حزن لا قرار لها، ورغم علمه أن هذا الحزن حتمي ولا بد أن يجتاحه ذات يوم، رغم علمه بكل هذا، فإنه يختار أن يربّيها.

وحين يموت الإنسان، لا يملك أن يحزن على نفسه، فالموت لا يخصّه حينذاك، بل يخص من بقي بعده. وبهذا، يغدو موت الإنسان وموت القط متساويين في جوهرهما.

حينما فكرتُ بهذه الطريقة، أدركت سر تعلق البشر بالقطط.

لا يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه حق المعرفة، فربما يعيش مع القطط لكي يتعرف نفسه ومستقبله وموته؟ كما كانت أمي تقول دائمًا: القطط لا تحتاج إلينا، بل نحن من نحتاج إليها.

وبينما كانت هذه الأفكار تدور في ذهني كالحلزونة، شعرتُ بوخزة أخرى من الألم في الشق الأيمن من رأسي.

يسيطر الموت على جسدي الصغير بالفعل. فأنام متكوّرًا حول نفسي في سريري أرتجف بضعف. شعرت بالاختناق عندما فكرتُ أنني أشبه خسًا في لحظة احتضاره.

يتضاعف ألم رأسي شيئًا فشيئًا، فأقوم إلى المطبخ وأتناول كبسولتين من مسكن الآلام، ثم أعود إلى السرير، وأغرق في سبات عميق.

صوت ألوها ليلة أمس يسألني:

- ماذا ستفعل؟

يقول:

- إما حياتك وإما القطط.

على وجهه ابتسامة صفراء.

- ليس هذا بالاختيار الصعب، أليس كذلك؟ فبغيابك، يفقد حب القطط وتدليلها معناه، وما ستخسره لا يُذكر مقارنة بذلك.

- أرجوك، انتظر قليلًا.

- هل هذا يعني أنك متردد؟

- أرجو منك الانتظار.

- فهمت. عليك أن تختار قبل أن تنتهي حياتك غدًا.

قال ألوها تلك الكلمات ثم اختفى.

استيقظتُ من النوم. أقبل الصباح وانتشر الضوء في الخارج.

نهضتُ من السرير ببطء، وشرعت أبحثُ عن كرنب.

غير موجود.

كرنب غير موجود!

تُرى أين ذهب؟ هل وافقتُ على اختفاء القطط وأنا بين الحلم واليقظة؟

أدرتُ بصري في أرجاء الغرفة. فلم أجد البطانية البرتقالية القديمة التي يتخذها مكانًا لنومه دائمًا. غير موجود فوق الأرفف، تحت السرير، داخل المرحاض، وداخل الحمام. غير موجود حتى داخل الغسالة التي يختبئ فيها دائمًا.

نظرت إلى حافة النافذة، حيث اعتاد أن يقفز ويجلس، ويهز ذيله باستمرار. وظهره المنحني كقبة صغيرة في أثناء نومه. ثم يصلني ملمسه الدافئ اللين وأنفاسه وهو نائم.

كأنني سمعتُ صوتًا خافتًا جدًّا، يقول: مياو.

- كرنب ...

قفزت من مكاني، انتعلت الصندل على عجل، وخرجت من البيت.

ربما كان في مرأب السيارات الذي أمام البيت. ربما كان مختبئًا أسفل تلك السيارة البيضاء.

غير موجود.

أجري في الطريق الذي تنزهنا فيه أمس أنا وكرنب.

هل ذهب إلى الحديقة؟

ركضتُ بلهفة صاعدًا المنحدر إلى أن وصلت إلى الحديقة.

ربما كان يجلس على تلك الدكة الزرقاء التي تقشر طلاؤها مرة أخرى.

غير موجود.

مطعم السوبا؟ ربما ذهب لأخذ رقائق السمك المجفف.

استدرت على عقبي وتوجهت إلى السوق التجاري.

حتى هنا غير موجود.

- كرنب!

أخذت أركض وأدور متوجسًا.

ركضت كثيرًا، حتى جفّ حلقي، وسخنت رئتاي كأنهما مشتعلتان بالنار.

تؤلمني عضلات قدمي كأنها تمزقت. أصبحت الرؤية أمام عيني ضبابية.

- أمي ...

بدأتُ خلال ركضي أتذكر أحداث ذلك اليوم.

الذكرى التي أحتفظ بها ممتزجة بعذابات جسدي هذا وروحي المعذبة.

ذلك اليوم الذي لا أريد أن أتذكره.

قبل أربع سنوات.

في ذلك اليوم أيضًا، كنت أركض بكل ما أوتيت من قوة، متجهًا إلى المستشفى.

أصيبت أمي بأزمة مرة أخرى.

وقد مكثت في المستشفى طويلًا، تزداد ساعات نومها يومًا بعد يوم، وتعاودها الأزمات من حين لآخر، وفي كل مرة أهرع إلى جوارها.

حين وصلت إلى المستشفى، كانت تتلوى من الألم فوق السرير. جسدها يرتجف بقوة وتكرر شكواها من البرد بقولها: «بردانة، بردانة».

- أمي!

كنتُ مذعورًا.

فلم يسبق لي أن رأيت أمي على هذه الحالة قط. أمي المرحة الحانية التي تسندني في كل المواقف. أمي ملاذي الآمن في كل أزماتي. هذه الأم سترحل وتتركني، كنت على وشك أن أفقد وعيي من الحزن والرعب.

راحت تكرر اعتذارها كأنها تهذي:

- آسفة، آسفة.

انقبض صدري، واغرورقت عيناي بالدموع.

أمسكت بيدها، ومسحت على ظهرها، وركبتاي ترتجفان باضطراب شديد.

بعد ساعة طويلة من العذاب والمعاناة غطت أمي في نوم عميق بفضل الأدوية والمحاليل. بات وجهها المبتسم هادئًا مسالمًا، إلى حد أنه كان من الصعب تصديق المعاناة التي كانت تعانيها منذ لحظات. شعرتُ بالارتياح لراحتها من الألم، فجلست على مقعد المستشفى متعبًا، ثم غلبني النوم كما أنا.

لا أدري كم مضى من الوقت. حين استيقظتُ، كانت أمي بجواري تشعل مصباحًا صغيرًا وتقرأ كتابًا على ضوئه. كانت تلك هي أمي التي أعرفها دائمًا.

- أمي، هل أنت بخير؟

- استيقظتَ؟ أعتذر لك. نعم أنا بخير.

- جيد.

- ... أفكر، ماذا سيحدث لي؟

تأملتْ أمي ذراعيها ببطء. أصبحت ذراعاها مهزولتين.

- أصبحتُ قريبة الشبه من خس.

- لا تقولي هذا يا أمي.

- معك حق. آسفة.

تسللت أشعة الغروب من النافذة إلى داخل الغرفة.

شمس المغيب التي اعتادت أن تكون برتقالية، كانت اليوم وردية.

هناك صورة تزين غرفة المستشفى.

أمي جالسة على كرسيها المتحرك وأبي وأنا، وخلفنا البحر، نضحك جميعًا.

- كانت رحلة الينابيع الساخنة ممتعة.

- أجل.

- مع أنني قلقتُ بشدة عندما لم تجد حجزًا في النزل.

- وأنا أيضًا، شعرتُ حينها بذعر شديد.

- حين أفكر بالأمر الآن، يبدو غريبًا نوعًا ما.

- كانت وجبة الساشيمي لذيذة جدًا.

- يمكننا أن نذهب مرة أخرى.

- أجل. ولكن ... آسفة، بات هذا مستحيلًا.

قالت أمي مستحيل ببساطة.

ولم أستطع الاعتراض على تلك الكلمة.

- لم يأت أبي بعد.

قلت ذلك لكسر حالة الصمت الذي لم أستطع احتماله.

- أجل ...

- قال إنه سيأتي، بعدما يُصلح إحدى الساعات.

- حقًا ...

كانت ساعة اليد التي تستخدمها أمي بحرص شديد، هي الساعة الوحيدة التي تملكها، وكان هذا أمرًا غريبًا مع أنها زوجة ساعاتي.

- أي ساعة تلك؟

- إنها أول هدية أهداني إياها أبوك.

- أحقًا هذا؟

- صنعها خصيصًا لي، بعد أن جمع أجزاء ثمينة من مجموعته النادرة.

- هل أبي من النوع الذي يفعل ذلك؟

- أجل كان كذلك.

قالت أمي ذلك ثم ظلت تبتسم كالعذارى.

- عندما جاء لزيارتي الأسبوع الماضي، شكوت له أنها توقفت عن

العمل. فأخذها مني ورحل في صمت. كان ينوي إصلاحها إذًا.

- ولكن، ألا ترين أنه لا داعي لإصلاحها في هذا الوقت تحديدًا؟

- لا بأس. أنا سعيدة بوجودك معي، ولكن طرق التعبير عن مشاعر الحب كثيرة ومتنوعة.

- هل هذا صحيح؟

- أجل صحيح جدًا.

بعد هذه المحادثة، تدهورت حالة أمي مجددًا، وتوفيت بعد ساعة.

اتصلت عدة مرات بالمحل، ولكن أبي لم يأت إلى المستشفى على الفور.

وصل أبي بعد موت أمي بثلاثين دقيقة.

يحمل في يده ساعتها.

حتى النهاية، لم ينجح في إصلاحها.

وبّختُ أبي أمام جثمان أمي.

لماذا يغيب عنها في هذا الوقت!

لم أستطع فهم تصرفاته، مهما دافعت عنه أمي.

حُمل جثمان أمي إلى متعهد الجنائز، ثم بقي سريرها في الغرفة مغطى بملاءة ناصعة البياض. كان ذلك البياض يطغى على كل شيء. وساعة أمي بجوار السرير. فقدتْ تلك الساعة، التي كانت دائمًا جزءًا من جسد أمي، فجأة روحها تمامًا، وبدت كأنها خردة.

تذكرت فجأة طوق عنق خس الأحمر، فضاق صدري. احتضنت تلك الساعة وانفجرت بالبكاء وحدي.

ومنذ ذلك اليوم لم أتحدث إلى أبي حتى اليوم.

عندما أفكر الآن في السبب الذي أفسد العلاقة بيني وبين أبي، لا أفهمه جيدًا.

من المؤكد أننا كنا في الأصل أسرة سعيدة متحابة. وكان أبي يصحبني وأمي إلى المطاعم، وكنا نذهب كذلك في رحلات معًا.

ولكنني أشعر أنني وأبي استغرقنا وقتًا طويلًا في إفساد علاقتنا دون سبب واضح.

لأننا أهل، كان وجود كل منا بدهيًّا، وكنا نؤمن، دون شك، أن بعضنا سيحسن معاملة بعض. آمن كل منا بذلك، فلم يسمع أحدنا رأي الآخر، بل ظل كلانا يصر على صواب رأيه وحسب.

ولكن هذا خطأ.

فالأسرة ليست بدهية الوجود، بل لا بد أن «تُخلق». كنا شخصين مختلفين، والدم فقط هو ما يربط بيننا. ورغم ذلك تساهلنا في تقوية العلاقة بيننا اعتمادًا على هذه الرابطة وحسب، لنجد في النهاية أن علاقتنا وصلت إلى حالة لا يمكن إصلاحها.

ثم مرضت أمي، فلم نتحدث حديثًا جادًا، بل ظل كل منا يتحجج بظروفه، ولم نفكر في صحتها. استمرت أمي تقوم بالأعمال المنزلية حتى تدهورت حالتها الصحية كثيرًا. وانتبهت إلى ذلك، لكنني لم أذهب بها إلى الطبيب.

كنتُ ألوم أبي الذي جعلها تواصل القيام بالأعمال المنزلية، وكان أبي يلومني لأنني لم أذهب بها إلى الطبيب رغم انتباهي إلى تدهور صحتها.

وفي النهاية، تمسكتُ بضرورة البقاء مع أمي في لحظاتها الأخيرة، بينما تمسك والدي بإصلاح ساعتها. لم نتمكن من التآلف معًا حتى النهاية، حتى موت أمي، لم يجعلنا نجتمع معًا.

ركضتُ. ركضتُ بلا هدف. أبحث عن كرنب، ولكن لا وجود له.

هل اختفى فعلًا؟ هل أخفيت كرنبًا؟ من هذا العالم حقًا؟

كرنب! ألن أستطيع لقاءك مجددًا؟

هل حقًا لن أستطيع لمس جسدك الدافئ اللين، وذيلك المهتز، وباطن كفك السميك، وصوت نبضك المتواصل؟

رحلت أمي، ورحل خس. فهل رحل كرنب؟ لا أتمنى أن أُترك وحيدًا مرة أخرى.

انهمرت دموعي في حزن وحسرة وألم. واصلت الركض وأنا أقرقع بقدمي، وفمي مفتوح في بلاهة، بدأت ألهث بشدة. ركضتُ ثم ركضتُ، وفي النهاية بدأ الألم يهاجم رأسي ببطء، ثم سقطتُ على الأرض. أزحف فوق بلاط الطريق البارد في منظر مخزٍ.

أعرف هذا البلاط. رفعتُ رأسي، فأدركتُ أنني في الساحة التي التقيت فيها حبيبتي السابقة قبل ثلاثة أيام. لقد وصلتُ إلى المدينة المجاورة دون أن أدري. أي أنني ركضت بكل قواي مسافة يستغرقها

الترام في ثلاثين دقيقة. ربما انتهى كل شيء. كان ملمس البلاط البارد يضعني وجهًا لوجه أمام تلك الحقيقة الصادمة.

لقد جعلتُ القطط تختفي، لقد جعلت كرنبًا يختفي من هذا العالم.

مياو.

سمعتُ مواء قط خافت فنهضتُ لاإراديًا.

مياو. مرة أخرى، المواء الخافت نفسه.

هرولتُ إلى مصدر الصوت.

أهذا حلم أم حقيقة؟ كنتُ مشتت الذهن، أركض وأنا أجر خلفي قدمي الثقيلتين كأنهما من الرصاص.

مياو. أركض إلى الاتجاه الذي يأتي منه الصوت.

وعندما انتبهتُ، وجدتُ نفسي أمام جدارٍ من الطوب الأحمر. أمام دار السينما.

مياو.

إنه هنا. إنه كرنب.

فوق مكتب التذاكر.

تمطّى ببطء، ثم هز ذيله كالمعتاد.

ثم نزل إلى الأرض قافزًا برشاقة.

مياو.

توجه ناحيتي. ببطء شديد.

فحضنته لاإراديًا.

شعرت بليونة في ذراعيّ ودفء، يصل إليّ إحساس جسده الدافئ. إحساس إنه حيّ.

- كرنب ...

أحضن كرنبًا برفق.

يخرخر كرنب بحنجرته.

- جيد أنه بخير.

كانت هي من يقف أمامي. هذا صحيح. فهي تسكن هنا.

- لقد دهشت بشدة لمجيئه فجأة.

- أشكركِ. أشكركِ جدًا.

- مرة أخرى تبكي. لم تتغير عادتك القديمة في سرعة البكاء لأقل سبب.

كانت دموعي تنهمر دون أن أنتبه.

شعرت بالخجل. ولكنني كنتُ أشعر بسعادة تفوق الخجل.

لم يختف كرنب من الوجود. بل هو في حضني الآن.

نهضتُ واقفًا وأنا أمسح دموعي.

- من المؤكد أن هذا من فعل والدتك.

- ماذا تعنين؟

أعطتني رسالة.

رسالة موجهة إلي. عليها طابع بريد، ولكنه ليس مختومًا بختم مكتب البريد.

رسالة كُتبت ولم تُرسل.

- عهدت والدتك بها إلي، ظللتُ محتفظة بها طوال الوقت.

- رسالة من أمي؟!

- أجل. عندما زرتها في المستشفى سلمتها لي.

لم أكن أعلم أنها زارت أمي في المستشفى.

تسلمتُ منها تلك الرسالة في دهشة.

- أخبرتني والدتك أنها كتبت الرسالة، ولكنها في النهاية لم تستطع إرسالها. ظنت أنها لن تراك مرة أخرى. ولذلك طلبت مني أن أسلمها لك لاحقًا حين أجدك غارقًا في الحزن والألم.

- أحقًا؟

- رفضتُ في البداية. فقد انفصلنا أنا وأنت. ولكنها قالت لي ليس بالضرورة أن أسلمك الرسالة. بل قالت إنه يكفي أن تكون هذه الرسالة مع أحد. ولكن جاء كرنب اليوم هنا، ورأيتك تبكي، ففكرت أن الآن هو وقتها.

- الآن؟

- وقت غرقك في الحزن والألم.

- أحقًا ...

- والدتك إنسانة عظيمة. كأنها ساحرة.

قالت ذلك ثم ضحكتْ.

وضعتُ كرنب على حجري وجلست على أريكة قاعة الانتظار.

ثم فتحتُ الرسالة ببطء.

«عشرة أشياء أريد فعلها قبل الموت».

هذا ما كان مكتوبًا بخط كبير (ولكنه جميل جدًا) في الورقة المُسطّرة الأولى.

تراخت عضلات جسمي لاإراديًا. الأم والابن يفعلان الشيء نفسه. قلبت الصفحة الثانية وأنا أبتسم.

أعتقدُ أنني لم يتبق لي في هذه الحياة إلا القليل.

لذا، قررتُ أن أفكر في عشرة أشياء أريد أن أفعلها قبل أن أموت.

أريد الذهاب في رحلة. أريد أن أتناول وجبة شهية. أريد أن أبدو أنيقة ...

بينما كنتُ أكتب أشياءً متنوعة، داهمني خاطر، وسألتُ نفسي:

هل هذه حقًا هي الأشياء التي أودّ القيام بها قبيل الموت؟

لما أعدتُ التفكير مليًّا، أدركتُ شيئًا لم أنتبه إليه من قبل.

لقد اكتشفتُ أن كل ما أطمح إلى فعله قبل أن أفارق الحياة، هو في الحقيقة أشياء أريد أن أفعلها من أجلك أنت.

سيمتدّ بك العمر طويلًا بعد رحيلي، أليس كذلك؟

وستُعاني كثيرًا من الآلام والأحزان.

ولذلك، رغبتُ في أن أُهديك قائمة جديدة، قائمة بصفاتك الجميلة، علّها تكون زادك في الحياة والمضي قدمًا نحو الغد، سندًا لك في مواجهة ما قد يُصادفك من آلام وأحزان.

سأُستبدل إذًا هذه القائمة الجديدة، التي سأسرد لك فيها «عشر صفات جميلة فيك»، بتلك التي حملت عنوان «عشرة أشياء أريد أن أفعلها قبل أن أموت».

صفاتك الجميلة:

عندما يكون أحد حزينًا، تبكي معه

عندما يكون أحد سعيدًا، تفرح معه

وجهك وأنت نائم

غمازة خدك عندما تبتسم

عادتك في لمس أنفك لاإراديًّا كلما شعرتَ بالتوتر

طبيعتك في مراعاة مشاعر المحيطين بك أكثر من اللازم

عندما أصاب بنزلة برد، تتولى الأعمال المنزلية بحماس

عندما أطبخ لك طعامًا تأكله كأنه ألذ طعام في العالم

أنت دائمًا تغرق في القلق سريعًا، وتفكر بعمق فيما يقلقك

ثم بعد كل هذه المعاناة والتفكير، تختار الاختيار الصحيح

أرجو أن تعيش حياتك دون أن تنسى صفاتك الجميلة هذه على الأقل.

فوجود هذه الصفات فيك يكفي لتكون سعيدًا، ولتمنح السعادة للمحيطين بك.

شكرًا لك على كل ما فات، ثم الوداع.

أرجو من أعماق قلبي أن تظل محافظًا على تلك الصفات الجميلة التي ميزتك حتى هذه اللحظة.

انهمرت الدموع قطرة بعد أخرى على أوراق الرسالة.

فكّرتُ: لا يجوز أن أبلّل هذه الرسالة المهمة، ولهذا بدأتُ أمسح دموعي بعجلة، ولكنها تساقطت دون انقطاع، تبلّل أوراق الرسالة. ومع تلك الدموع، انسكب سيل من ذكرياتي الكثيرة مع أمي.

أمي، التي كانت دائمًا تدلك ظهري كلما أصابتني نزلة برد.

أمي، التي ركضت إليّ وحضنتني عندما تُهتُ وسط زحام الملاهي وبكيت.

أمي، التي أمضت يومًا كاملًا تبحث فيه عن متجر كبير، فقط لأني أردت الحصول على صندوق وجبات ملوّن مثل زملائي.

أمي، التي كانت تغطيني كل ليلة باللحاف، لأني أتقلب كثيرًا في أثناء النوم فأُبعده بقدمي دائمًا.

أمي، التي كانت تشتري لي الملابس ولا تشتري لنفسها شيئًا تقريبًا.

أمي، التي كانت تعد لي أومليت البيض اللذيذ.

أمي، التي كانت تعطيني نصيبها من الأومليت، لأن حصتي لم تكن تكفيني دائمًا.

أمي، التي أهديتُها كوبونات تدليك الكتف في عيد ميلادها.

فلم تحاول يومًا استخدامها، وهي تقول لي حينما أسألها عن السبب: «لا أستطيع استخدامها، أشعر أنني سأفقد شيئًا ثمينًا إن استخدمتها».

أمي، التي اشترت بيانو خصيصًا لتعزف لي أغنيتي المفضلة دائمًا.

فظلت على الدوام لا تتقن العزف وتخطئ كل مرة في الموضع نفسه.

أمي.

تُرى هل كان لها وقت خاص بها؟ هل كان لها يومًا هوايةٌ تحبّها؟

هل كان لديها ما تريد فعله، حلم تريد تحقيقه في المستقبل؟

كنتُ أريد إبلاغها شكري على الأقل. أن أقول لها: شكرًا، ولكن لساني انعقد ولم أتمكن من النطق بكلمة واحدة.

دائمًا ما كنتُ أشعر بالخجل، فلم أشترِ لها وردة واحدة طوال حياتي.

تُرى لماذا لم أستطع أن أفعل لها شيئًا يسيرًا كهذا؟

ترى، لماذا لم يخطر ببالي آنذاك أنّ والدتي ستغيب عن هذا العالم يومًا ما؟

ما زالت كلمتها تتردد في أعماقي، تُبعث من جديد:

«لكي تنال شيئًا، يجب أن تفقد شيئًا في المقابل».

لا أريد أن أموت يا أمي! أنا أخاف الموت يا أمي! ولكن... كلامك صحيح يا أمي.

أنا أعاني لأنني مضطر أن أسلب الناس ما يحبون لكي أطيل عمري!

سمعت صوتًا يقول:

- لا داعي للبكاء، أيها الوالي!

وحين أفقت من شرودي، وجدتُ كرنب جالسًا فوق حجري، يحدّق في وجهي.

ثم واصل كرنب حديثه إليَّ، كأنه أراد أن يسيطر على دهشتي من عودته للتحدث مجددًا:

- الأمر سهل، لا مانع من اختفاء القطط، سعادتك.

- مستحيل أن أقبل بهذا يا كرنب.

- أريدك أن تعيش أيها الوالي. من الصعب عليّ العيش في عالم لستَ فيه أيها الوالي!

عشت حياتي كلّها دون أن أتخيل يومًا أن أبكي متأثرًا بكلمات قط. ولكنني كنتُ على يقين أنني حتى لو لم أسمع صوته، حتى لو اكتفى بالمواء أو الخرخرة، لفهمت مشاعره تلك. فعادت الدموع التي حسبتُها جفّت، تنهمر من جديد.

- أرجوك لا تبكِ. فأنا لا شيء، أنا تافه جدًا، إذا ما قورنتُ بما جعلته يختفي، سعادتك.

- لا، ليس الأمر كما تقول يا كرنب! ليس كذلك أبدًا!

لو اختفت القطط من العالم.

لو اختفى خس، وكرنب، ثم لو اختفت أمي! كنتُ الأحمق الجاهل الذي لم يتخيل أن هذا سيحدث ذات يوم! ولكنني الآن أدركت. أدركت أن لوجود كل شيء في هذا العالم سببًا، وما من أي سبب وجيه لجعل أي شيء يختفي.

حسمتُ أمري، واتخذتُ قراري، وأنا على يقين أن كرنبًا سيتفهّم قراري هذا جيدًا أكثر من أي أحد آخر.

بعد برهة من التزامه الصمت عاد كرنب ليتحدث من جديد:

- ... لقد فهمتُ مشاعرك أيها الوالي.

- أشكرك، يا كرنب.

- حسنًا، في النهاية.

- في النهاية؟

- أريد أن تغمض عينيك، سعادتك!

- ماذا تعني؟

- لا داعي للسؤال، وأغمِض عينيك، سعادتك.

- أغمضتُ عيني ببطء.

وهناك، وسط الظلام، ظهرت أمي.

شعرتُ بحنين جارف يجتاحني، ذكرى ذلك اليوم عادت بكل تفاصيلها.

في طفولتي، كنتُ كثير البكاء. ولم يكن من السهل إيقافي عن البكاء.

وفي إحدى نوبات بكائي التي لا تنتهي، اقتربت مني أمي وقالت لي بحنان:

- أغمض عينيك ببطء.

- لماذا؟

- لا تسأل، فقط جرب.

فأغمضتُ عيني وأنا أبكي.

فرأيتُ حزني دوامة سوداء تدور حول نفسها في وسط الظلام.

- بماذا تشعر؟

أجبت:

- أشعر بحزن عميق يا أمي.

ثم فتحت عيني ببطء.

واصلت أمي قولها وهي تحدق في عينيّ:

- والآن، ارسم ابتسامة على وجهك.

- لا أستطيع.

- حتى ولو أجبرت نفسك عليها.

حدث تعارض بين قلبي وجسمي، فرسمت ابتسامة زائفة. وجهي يبتسم، ولكن قلبي حزين ودموعي لا تتوقف.

شجعتني أمي قائلة:

- لا بأس، افعل ذلك ببطء.

فرسمتُ ابتسامة على وجهي بصعوبة.

- حسنًا، الآن أغمض عينيك مرة أخرى.

أغمضتُ عيني ببطء بعد قولها هذا.

وأنا مغمض العينين ومبتسم ابتسامة مصطنعة، لسبب مجهول هدأ قلبي، واختفت الدوامة السوداء. وظهر نور خافت بلون كريمي، كأن شمسًا دافئة أشرقت وسط الظلام. وبينما كنتُ أنظرُ إلى ذلك النور، شعرت بالدفء يملأ صدري تدريجيًّا، ومشاعر حنونة تتسلل إلى قلبي.

- كيف تشعر الآن؟

- أشعر بتحسن.

- رائع.

- كيف فعلت ذلك يا أمي؟

- هذا سر.

- سر؟

- نعم، خدعة سحرية. إذا ما غمرتك الأحزان في يومٍ ما، فابتسم، وإن كانت ابتسامة زائفة، وأغمض عينيك، هذا يكفي. ثم من الأفضل أن تكرر نفس الفعل عدة مرات.

جعلني كرنب أتذكر، خدعة أمي السحرية.

تلك الخدعة السحرية المذهلة التي كنت أرجوها دومًا أن تلقيها عليّ عندما أكون حزينًا.

وأنا الآن، جالس في قاعة الانتظار بدار السينما، أغمضتُ عيني ببطء، ووجهي مرسوم عليه ابتسامة مصطنعة، بينما الدموع تنساب على وجنتي. فشعرتُ بقلبي يغمره الدفء، وروحي تستكين تدريجيًّا.

ما زلتُ أحتفظ داخلي بسحر أمي ولم يختفِ بعد.

- شكرًا يا أمي.

كلمات لم أستطع قولها لها في حياتها. كلمات أردتُ قولها لها طوال الوقت.

أخيرًا، استطعتُ الآن فقط أن أقول هذه الكلمات.

فتحتُ عيني.

فرأيت كرنبًا مستلقيًا على حجري، يخرخر بلطف.

- شكرًا لك يا كرنب.

داعبتُ ظهره بحنان.

يصيح كرنب: «مياو» كأنه يجيب على كلماتي.

مياو، مياو، مياو.

ظل يواصل المواء.

بدا كأنه يريد أن يبلغني شيئًا باستماتة. ولكنني لا أسمع منه تلك الكلمات الغرائبية. لا يُسمع منه كلمات خادمك المطيع! سعادتك! الوالي!

هذه هي لحظة الوداع الحقيقية.

ثم عادت كلمات أمي تتردد في ذاكرتي:

«البشر لا يربون القطط، بل القطط تعيش مع البشر»

سعيد أنني استطعت الحديث مع كرنب لآخر مرة.

وربما كان ذلك أيضًا نتيجة سحر أمي.

الوداع يا كرنب. وشكرًا لك على كل ما منحتني حتى الآن.

مكثت مدة جالسًا في قاعة الانتظار التي خيّم عليها الظلام، كأنني انفصلتُ عن الواقع.

أعدتُ قراءة الرسالة مرة أخرى وأنا أداعب ظهر كرنب. كررتُ قراءتها مرة بعد مرة. وكلما وصلت إلى نهايتها، كان صدري يضيق. كنتُ أشعر بألم حاد في صدري، كأن أشواكًا صغيرة انغرزت فيه. تُرى، ما العمل الآن؟ ثمة شيء واحد أخير ينبغي عليّ فعله.

أجل، كان هذا مكتوبًا في نهاية رسالتها:

أرجو منك أن تتصالح مع أبيك.

السبت
لو اختفيتُ من العالم؟

لستُ أعلم حقًا، أأنا سعيد أم تعس؟

غير أنّ أمرًا واحدًا فقط أدركه بيقين.

أن الإنسان يستطيع أن يكون سعيدًا أو تعيسًا، بلا حدود، إن أقنع نفسه فقط.

استيقظتُ في الصباح، فوجدتُ كرنبًا نائمًا بجانبي.

أشعر بملمس جسده الدافئ اللين. صوت نبض قلبه المتواصل.

لم تختفِ القطط من العالم.

وهذا معناه ببساطة: أنني أنا من سيختفي من هذا العالم.

تخيلتُ الأمر: لو اختفيتُ أنا من العالم!

تُرى إلى أي حد سيكون هذا أمرًا تعسًا؟

كل إنسان مآله إلى الموت، لأنه بشر، ونسبة وفيات الكائن الحي ١٠٠٪. وعند هذا الحد من التأمل، يصبح سؤال: «هل موت إنسان

ما أمر سعيد أم تعس؟» له علاقة مباشرة بكيفية عيش ذلك الإنسان حياته.

تذكّرت الآن مقولة أمي:

«لكي تحصل على شيء، يجب أن تفقد شيئًا في المقابل!»

لقد جربتُ بالفعل أن أجعل الهواتف والأفلام والساعات تختفي من هذا العالم في مقابل الحصول على يوم زائد في حياتي.

ولكنني لم أستطع إخفاء القطط.

ربما سيسخر الناس مني، ويقولون إنني مجنون، إذ ضحيتُ بحياتي في سبيل استمرار القطط في هذا العالم.

وهذا صحيح، تصرفي غاية في الحماقة. ولكنني لم أستطع أن أجد أي سعادة في إطالة عمري مقابل أن يفقد الآخرون ما يحبون. لم تكن القطط في نظري تختلف كثيرًا عن الشمس أو البحر أو الهواء. وهكذا توقفتُ عن إخفاء الأشياء من العالم. وقررتُ أن أقبل بحقيقة أن عمري الذي قُدّر لي، أقصر من أعمار الآخرين قليلًا. وبهذا سأموت قريبًا.

عندما عدنا أنا وكرنب إلى البيت في الليلة الماضية كان ألوها في انتظارنا.

يرتدي قميصًا صارخ الألوان، وسروالًا قصيرًا، وقد وضع فوق رأسه نظارة شمسية كعادته. في البداية، كنت أنزعج من مظهره، لكنني مع الوقت ألفته، وشعرتُ بالراحة لرؤيته. اعتياد البشر أمر مرعب.

- حيّرتني معك! أين كنت؟ تصورت أنه حدث لك اختفاء رباني،

وبدون تفكير كنتُ على وشك الاستعلام من الرب عن الأمر ... أمزح طبعًا!

- آسف.

- ماذا ... أين رد فعلك المعتاد؟ إذا لم تنتقدني بشدة كالعادة، فلن أستطيع الاستمرار!

- أعتذر لك.

- ... كلا، ليس هذا ما اعتدتُ عليه منك. لكن لا بأس على أي حال. حسنًا هل نبادر بإخفائه؟ هذا.

أشار ألوها بإصبعه إلى كرنب مرددًا لحنًا مرِحًا بأنفه.

- لن أجعله يختفي.

- ماذا؟

- قلتُ لك لن أجعل القطط تختفي.

- هل تمزح؟

- كلا، أنا جاد جدًا.

وحين رأيتُ وجه ألوها المندهش تصاعدت داخلي الرغبة في الضحك.

- ما الذي يجعلك تضحك هكذا؟ ستموت! ألا تبالي؟

- لا أبالي. لن أتسبب في اختفاء أي شيء آخر بعد الآن.

فقال ألوها بإحباط:

- يمكن أن تعيش أطول.

- ولكن، الحياة لا تقاس بطولها، بل بكيف نحياها.

التزم ألوها الصمت. ثم حدّق إليّ طويلًا قبل أن يتحدث مرة أخرى:

- خسرتُ جولة أخرى أمام الرب! لا أفهمكم أيها البشر!

- ماذا تقول؟

- كلا، لا تشغل بالك، أنا الخاسر! مُتْ كما يحلو لك!

- أليس لديك كلمات ألطف من هذه؟ على كل حال، سأموت.

ثم ضحكتُ، فأصابت العدوى ألوها فضحك هو الآخر.

- ولكن، هذا يعني أننا سنفترق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- هذا صحيح.

- سأفتقدك.

- أنا أيضًا سأفتقدك. لأنك كنتَ إنسانًا مثيرًا للاهتمام حقًا.

- وأنت أيضًا كنتَ شيطانًا مثيرًا للاهتمام بدرجة كبيرة.

- مجاملة لطيفة منك.

- ولكن، قل لي، ما شكل الشيطان الحقيقي؟

- هل تريد أن تعرف؟

- أجل، أريد أن أعرف.

- هممم ... في الواقع، ليس لي شكل ولا مظهر.

- بمعنى؟

- الشيطان، لا وجود له إلا في قلوبكم أيها البشر. أنتم من ترسمون على هواكم صورًا عدة ومتنوعة لهذا الوجود الشيطاني داخل قلوبكم. أسود، ذو أنياب، ويحمل رمحًا، وأحيانًا ما يكون تنينًا.

- مفهوم.

- خاصة الصورة التي يحمل فيها الشيطان رمحًا تلك، ليت البشر ينصرفون عنها. فهي ... ذوق منحدر جدًا.

- أتفق معك، قبيحة فعلًا.

- كريهة جدًا.

- أتفهّم ذلك!

- أمّا شكلي هذا، فهو ما تتخيله أنت عن الشيطان. فمن المؤكد أن صورة الشيطان داخل قلبك تشبهك شكلًا.

- ولكن، الصفات الشخصية مختلفة تمامًا.

- هذا صحيح. وهنا يكمن المعنى، أي أنني أجسد شخصية ربما كان يمكنك أن تكونها.

- بمعنى؟

- مَرِحٌ في كل الأحوال، لا تفكر في أي شيء، ترتدي زيًّا صارخ الألوان، تفعل كل ما تريد، ولا تكترث بنظرات الناس، وتقول كل ما يعن لك.

- بالتأكيد هذا على النقيض مني تمامًا.

- بالضبط. لقد مررت بتجارب ندم لا حصر لها، كنتُ أريد أن

أفعل هذا! يا ليتني فعلت ذلك! وأصبحتْ تلك اللحظات مفترق طرق بينك وبين ذات أخرى، ستكون ذاتك لو فعلت ما ندمتَ على عدم فعله، وهذه هي شخصيتك التي ستكون عليها لو اخترت أن تعيش في الاتجاه المعاكس. الشيطان، في نظري، هو تلك الذات البديلة التي رغبتَ أن تكونها ولكنك لم تستطع. هي أقرب صورك إلى نفسك... لكنها أبعدها في آنٍ واحد!

- وهل ترى أن اختياري هذا كان صحيحًا؟

- أرجوك لا تسألني أنا هذا السؤال.

- هل سأندم حين أموت؟

- ستندم. هذا مؤكد. ستصرخ: أريد أن أعيش! أرجوكم استدعوا لي الشيطان من جديد! فالإنسان، بطبعه، يميل إلى النظر إلى الحياة التي لم يخترها بندم ويحسد من عاشها.

هناك مَن يقول:

«من يظن أنه سيموت غدًا، يستمتع بآخر لحظاته إلى أقصاها»

ولكنني شخصيًّا أرى أن هذا كذب.

منذ أن يدرك الإنسان أنه سيموت، يتوصّل إلى تصالح هش بين الأمل في الحياة والتصالح مع الموت، وخلال ذلك يتذكّر الكثير من الأحلام التي لم تتحقق، والكثير من حالات الندم على أشياء تافهة. ولكن بعدما حصلتُ على ميزة إخفاء الأشياء من هذا العالم، أرى أن هذا الندم شيء رائع، فهو الدليل على أنني عشت حياتي في هذا العالم.

لن أواصل إخفاء الأشياء بعد الآن.

وربما أندم على ذلك لحظة موتي، وأقول: ليتني جعلت القطط أو غيرها تختفي، وأطيل حياتي. ومع ذلك لا مانع، فحياتي، كلها ندم.

حياة كان من المفترض أن أعيشها بذاتي، لكنني لم أتمكن من ذلك.

بل إنها حياة لم أجد فيها حتى ذاتي تلك.

والآن، سأواجه الموت حاملًا على عاتقي الكثير من الفشل والندم، والأحلام غير المحققة، واللقاءات التي رغبت فيها، والأطعمة التي أردتُ تناولها، والأماكن التي أردتُ زيارتها. ومع كل ذلك لا أجد بأسًا. أنا الآن راضٍ عن نفسي، وراضٍ عن مكاني هذا، ولا أفضل عليه أي مكان آخر غيره.

بعد أن قيل لي إنه لم يتبق من حياتي إلا القليل، ظهر أمامي الشيطان، وأطال في حياتي يومًا مقابل اختفاء شيء من العالم. كانت أيامًا عجيبة حقًا.

ألا يشبه ذلك التفاحة التي أغوت آدم وحواء؟

ربما كانت هذه الأيام استمرارًا لذلك الرهان الخالد بين الإله والشيطان. لم يكن اختبارًا من الإله عن قيمة الأشياء التي تختفي من العالم، بل عن قيمتي كإنسان.

لقد خلق الرب العالم في ستة أيام. أمّا أنا فمحوت شيئًا بعد آخر. ولكنني لم أستطع أن أمحو القطط، فقررتُ أن أواجه الموت. وقريبًا سيأتي يوم راحتي.

نظر إليّ الشيطان وأنا غارق في التفكير، فقال ضاحكًا:

- في النهاية أدركت مَن المهم لديك وما الذي لا يمكن تعويضه، وأدركت كم هو رائع أن تكون على قيد الحياة في هذا العالم. أخذت جولة حول العالم الذي تعيش فيه، ورأيته بعيون جديدة، فأدركتَ أنه مهما كان هذا العالم مملًا، فإن به من الجمال ما يعوّض ذلك تعويضًا كافيًا. وهذا في حد ذاته يجعل لحضوري إلى هنا معنى.

- ولكنني، سأموت.

- ربما، ولكن هناك حقيقة واحدة مؤكدة: أنك الآن سعيد في هذه اللحظة، رغم إدراكك لقرب موتك.

- ليتني أدركتُ ذلك مبكرًا.

- هذا صحيح. ولكن، لا أحد يعرف كم تبقى لك، ربما أيام وربما شهور. فالبشر جميعًا لا يعرفون أعمارهم.

- هذا صحيح بالتأكيد.

- إذًا، لا وجود لمبكر أو متأخر.

- يا له من قول رائع!

- أليس كذلك؟ إنها هدية بسيطة مني في آخر لقاء بيننا. وأرجو أن تنفذ ما لم تجد وقتًا لتنفيذه من رغباتك. حسنًا، حان الوقت. الوداع.

قال ألوها هذه التحية المتناهية في خفتها ثم غمز بعينه (أغمض

عينيه في وقت واحد كالعادة). وما إن انتبهت، حتى اختفى من أمام عيني.

- مياو.

هكذا صاح كرنب كأنه يشعر بالوحدة بعد رحيل ألوها.

وهكذا، بدأتُ في ترتيب أغراضي. شرعتُ أتهيأ للموت.

أول ما قررت فعله هو تنظيف شقتي، والتخلص من كل ما هو غير ضروري.

دفاتر يومياتي المخزية، وملابسي التي لا تناسب العصر، والصور التي لم أستطع التخلص منها مهما مر من وقت، تظهر مقاطع من حياتي فجأة، وتختفي فجأة. تساءلتُ: لو جعلت هذه الأشياء تختفي، هل كان ألوها سيطيل في عمري؟ مر هذا الخاطر على ذهني فجأة. ومع ذلك لم أحس بالندم. فأنا الآن يغمرني شعور بالارتياح والاسترخاء سببه أنني «لستُ مضطرًا لجعل المزيد من الأشياء تختفي».

تخلصت من الأشياء وأنا غارق في ذكرياتي معها (ومحاولة كرنب عرقلتي بالكثير من العقبات). وحين انتهيت من ترتيب الشقة، كان المساء قد حل.

تسللت أشعة الشمس البرتقالية من النافذة، وانصبّت على صندوق معدني صغير موضوع فوق النضد وحيدًا. صندوق عثرت عليه في أعماق خزانة الملابس. صندوق قديم علاه الصدأ، صندوق حلويات شركة يوكو موكو، الصندوق الذي يحتوي على كنوزي.

أخذتُ أحدق في الصندوق بإمعان. يحتوي هذا الصندوق على كل

ما أملك من كنوز. كلا، ربما لم يعد يمكنني القول إنها كنوز، فلقد نسيتُ تمامًا وجوده نفسه حتى عثرتُ عليه اليوم.

يمتلك البشر قدرة عجيبة على تحويل كنوزهم إلى خردة.

كل هدية عزيزة، وكل رسالة محببة، وكل ذكرى جميلة، سرعان ما تُنسى وتُهمل!

وأنا كذلك، أغلقتُ هذا الصندوق على تلك الكنوز، مع ما تحويه من ذكريات.

مهما حاولت، لم تطاوعني نفسي على فتح الصندوق، فقررتُ ترك البيت والخروج منه.

غادرتُ منزلي قاصدًا متعهد الجنائز.

لقد قررت أن أتولى حجز جنازتي بنفسي.

يقع محل متعهد الجنائز في أطراف المدينة داخل مبنى أنيق مخصص لمراسم العزاء، وأناقة المكان تدلّ على مدى ازدهار هذه التجارة.

جلستُ أتناقش مع مسؤول التسويق (تُرى أيمكن أن يُطلق عليه مسؤول التسويق، رغم أنّ الأمر يتعلّق بجنازة؟) أظهر مسؤول التسويق تفهمه لظروفي ببساطة متناهية، وشرح لي بالبساطة نفسها تكاليف الجنازة.

كان المبلغ الإجمالي، مليون ونصف المليون ينّ، شاملًا كل شيء؛ المذبح، التابوت، الزهور، إطار صورتي الشخصية، جرة خزفية، لوحة الاسم، سيارة الموتى وكذلك رسوم حرق الجثمان. هذا هو المبلغ اللازم

لدفن جثتي. أخذت أقرر بنفسي ثمن موتي. استمر نقاش روتيني حول كل شيء من القطن الأبيض الذي تُسد به فتحتي الأنف، مرورًا بالثلج الجاف الذي يوضع داخل التابوت.

فلإيقاف تحلل جثتي يلزم وضع ثلج جاف بمبلغ ثمانية آلاف وأربعة مئة ين كل يوم داخل التابوت. يا للسخرية! كل شيء، وكل تفصيل، له درجات متفاوتة: من المذبح إلى التابوت، وحتى إطار الصورة الشخصية، ولكل درجة تسعيرة محددة بدقة. أرى أن الإنسان مخلوق فظيع يضع لكل شيء تصنيفًا وترتيبًا حتى الموت.

خشب طبيعي، خشب أبلكاج، خشب منحوت، خشب يشبه الجلد الطبيعي، خشب مطلي بورنيش لامع.

تتراوح الأسعار من خمسين ألف ين إلى مليون ين.

قادني الموظف داخل غرفة معتمة تصطف فيها التوابيت، فتخيلت نفسي ممددًا داخل أحدها.

جنازتي!

تُرى، من سيحضرها؟

أصدقائي القدامى، حبيباتي السابقات، أقاربي، أساتذتي، زملائي.

كم واحدًا منهم سيحزن بصدق على رحيلي؟

ماذا سيُقال عن حياتي؟

كان مرحًا، كان مهملًا، كان ضيق الخُلق، لم يكن محبوبًا من النساء

أي ذكريات سيحكونها وهم مجتمعون حول نعشي؟

في تلك اللحظة، انتبهت إلى شيء...

تُرى هل قدّمت لهم شيئًا؟ هل تركتُ فيهم أثرًا؟

أدركت أنني عشت حياتي كلّها من أجل هذه اللحظة التي من المستحيل أن أعرف تفاصيلها.

ثلاثون عامًا من الحياة، ولم أتنبه إلى ذلك إلا الآن.

العالم الذي عشتُ فيه، والعالم الذي لم أعش فيه. ذلك الفرق الطفيف بين الاثنين، المؤكد وجوده.

هذا «الفرق» الصغير، الصغير جدًا، هو بالتحديد «الأثر» الذي تركته في هذه الحياة.

عدتُ إلى البيت الذي أصبح خاليًا كقاعة زِنّ.

اقترب مني كرنب، وأخذ يموء: مياو، مياو. يبدو أنه متعكر المزاج لأنني تركته وحيدًا في البيت مدة طويلة. وهذا ما توقعته، فوضعت له سمك التونة الذي اشتريته من محل الأسماك في السوق التجاري في طريق عودتي للبيت.

صرخ كرنب صرخة خافتة كأنه يقول: «أنت أيها الوالي تفهم حقًا ما يجب عمله، سعادتك» وبدأ يأكل التونة بنهم.

وبينما كان كرنب منهمكًا في أكل التونة، تناولتُ صندوق حلويات يوكو موكو، وحدقتُ فيه طويلًا جدًا، ثم فتحته بهدوء.

كان هذا الصندوق الذي احتفظتُ فيه بكل أحلامي في طفولتي.

هذا الحلم المستطيل الشكل الذي كنتُ أمعن فيه النظر وأتأمله منذ صغري حتى يختنق صدري بأنفاسي.

يحتوي على طوابع من شتى بقاع العالم، طوابع ملونة، وطوابع متنوعة.

فجأة بدأت الذكريات تتدفق عليَّ.

إنها ذكرياتي مع أبي.

عندما كنتُ صغيرًا، اشترى لي أبي مجموعة طوابع تذكارية للألعاب الأوليمبية. طوابع صغيرة متنوعة الألوان، ولكنني بخلتُ بها فلم أستخدمها. إذ كانت تبثّ في داخلي شعورًا لا يُقاوَم.

واصل أبي إهدائي طوابع بريد في كل مناسبة.

طوابع كبيرة، طوابع صغيرة. طوابع يابانية، طوابع أجنبية.

كانت تلك الهدايا بمثابة «الحوار» الوحيد بيننا، إذ كان أبي قليل الكلام. والأمر العجيب أنني رغم صمته، كنتُ أشعر أنني أفهم ما يفكر فيه من خلال نوع الطوابع التي يهديها لي.

عندما كنتُ طالبًا في المدرسة الابتدائية، سافر أبي إلى أوروبا في رحلة ترفيهية مع أصدقائه.

وصلتني منه بطاقة بريدية، وقد ألصق عليها طابع كبير ملوّن، يصوّر قطًا يتثاءب. لا إراديًا تسربت مني الضحكات. فقد كان قطًا يشبه خسًا جدًا. كان ذلك مزاحًا نادرًا من أبي. من فرحتي الشديدة قررتُ أن أنزع الطابع من البطاقة فنقعتُها في ماء لمدة ليلة كاملة.

ولم يغمض لي جفن تلك الليلة.

تصوّرت المشهد: أبي يجد طابعًا بريديًا عليه قط في محل بأحد شوارع باريس، فيتحدث لغة فرنسية متعثرة ليشتريه مع بطاقة بريدية، ثم يخطّ عليها رسالة لي في مقهى قريب، ويلقيها في صندوق بريد أصفر، ثم يأتي ساعي البريد ليجمع محتوى الصندوق، وتُرسل البطاقة من مكتب بريد باريس المركزي إلى المطار، وتُحمل بالطائرة وتصل إلى اليابان، ومن ثم تُسلَّم إلى مدينتي الصغيرة. تخيل هذا الطريق الطويل الذي سلكته البطاقة حتى تصل إليَّ، كان كفيلًا بأن يملأ قلبي بالإثارة، ويحرمني النوم.

تذكرتُ الآن! لقد بدأت العمل ساعي بريد بدافع حبي للطوابع.

تأملتُ الطوابع في الصندوق.

طوابع من شتى بقاع العالم، طوابع ملونة، وطوابع متنوعة.

عليها رسوم لأشياء متنوعة وأناس كثيرين.

أشعر أنني أحبها جميعًا.

أشياء ربما آلت إلى الاختفاء بسببي! أشياء ربما لو اختفت لا يتأثر العالم بتاتًا. ولكنها جميعها أساس هذا العالم.

أفكر بينما ألمس قطع الورق الصغيرة.

يُلصق الطابع، وتُرسل الرسالة، فتصل إلى هدفها، حاملة مشاعر مرسلها الدافئة بكل تأكيد. كلما بُث فيها دفءٌ، شعرتُ أنا أيضًا بدفء المشاعر التي أوصلتُها، تسري فيّ، وتأخذني معها بدفء وهدوء إلى مكان سعيد.

لنلتقي يومًا هناك.

تذكرتُ! يجب أن أكتب رسالة، فيما تبقى لي من وقت.

الكلمات الكثيرة المتبقية داخلي، التحيات التي اختصرتها، والمشاعر التي عجزتُ عن إيصالها.

أُطلق لها العنان كلها، وأُلصق عليها طوابع.

ثم ما تلبث هذه الطوابع أن تتراقص في الهواء مثل بتلات الزهور، وتُزيّن لحظة احتضاري!

مهرجان.

خيول.

لاعب جمباز.

حمامة.

لوحات شعبية مرحة.

بحر.

بيانو، سيارة، راقصات، زهور، أبطال وعظماء، طائرة، دعسوقة، صحراء، قط يتثاءب.

لحظة احتضاري.

أستلقي مغمض العينين.

يدور الجميع ويلفون من حولي ومن فوقي، نغمات جرس الهاتف، يُعرض على الشاشة فيلم «أضواء المسرح»، وتبدأ عقارب الساعة في الحركة. ومع قول «استعد، انطلق»، تبدأ الرسائل في التحليق، وترقص في الهواء.

تحلّق محاطة بأظرف متنوعة الألوان.

حمراء، زرقاء، صفراء، خضراء، بنفسجية، بيضاء، وردية.

وسط سماء مائية اللون كأنها شفافة.

ثم، ألفظ أنفاسي الأخيرة في سكينة.

أمام طوابع لا حصر لها، ابتسمتُ ابتسامة خفيفة، وأنا أتخيل وحدي هذه الحالة التعسة جدًا، والسعيدة جدًا!

قررتُ أن أكتب رسالة.

من المؤكد أنها ستكون الرسالة الأخيرة، أي وصيتي.

لكن، أكتبها إلى من؟

وفيما كنتُ أعاني من التفكير هكذا، اقترب كرنب من حجري صائحًا: «مياو».

فاتخذتُ قراري.

سأكتب الرسالة إلى من سأعهد له برعاية كرنب من بعدي.

إذا كان الأمر كذلك، فليس هناك سواه! ليس هناك إلا ذلك الرجل.

كنت أعرف الإجابة منذ زمن، ولكنني ظللتُ مدة طويلة لا أريد الاعتراف بها.

يوم أتت أمي بكرنب إلى البيت،

اعترضتُ بشدة.

فإذا مات هذا القط يومًا، ستسوء حالة أمي، ستعاني أمي مرة أخرى

معاناة شديدة لفراقه. سيأتي حزن عظيم لا داعي له. كان هذا تفكيري وأنا أعارض تربية كرنب في بيتنا.

ولكن، كان رأي أبي مختلفًا.

- لا بأس من تربيته.

هكذا صرح أبي بلا مبالاة، وأضاف:

- كل حي مصيره الموت، بشرًا كان أم قطًا. إذا أدركنا ذلك، فلن تحدث مشكلة في المرة القادمة.

كنتُ أعلم أن أبي يقلق على أمي أكثر من أي إنسان آخر. وكنتُ أعلم كذلك أن أبي هو أكثر من أحب خسًا ودلّله. ولهذا السبب بالذات كنتُ أتوقع أن أبي أول من سيعترض.

ولكنه لم يفعل.

كان أبي يقول الصواب دائمًا. وأظن أنني كنتُ أكره ذلك الصواب.

وعندما التزمتُ الصمت لعدم قدرتي على الرد، صاح القط الصغير «مياو» واقترب من أبي بخطوات واهنة. فرفعه أبي من على الأرض وحضنه. كما كان يفعل دائمًا مع خس.

وحين رأت أمي ذلك المشهد، ابتسمت في سعادة.

وعندما رأى أبي ابتسامة أمي، قال بخجل:

- إنه يشبه خسًا تمامًا.

- أليس كذلك؟ كحبتي فول!

- حسنًا، لنسمه كرنبًا إذًا.

قال أبي ذلك ثم شعر بالخجل على ما يبدو فأعطاني القط، وعاد بخطوات سريعة إلى مكتبه وبدأ عمله في إصلاح الساعات.

أجل، أبي هو من أطلق على القط الصغير اسم كرنب.

فلا أحد أفضل من أبي، أعهد إليه برعاية كرنب من بعدي.

وهكذا بدأت في كتابة الرسالة.

أول رسالة أكتبها إلى أبي، وآخر رسالة.

ويبدو أنها ستكون وصية طويلة جدًا.

ولكن، يجب إخبار أبي بكثير من الأمور.

عن هذه الأيام الستة العجيبة.

وعن أمي.

وعن كرنب.

وعما أردتُ حقًا قوله لأبي طوال الوقت.

وعن نفسي.

وضعتُ الورق المسطر فوق المكتب، وأمسكتُ القلم.

وكتبتُ في أعلى الورقة.

إلى أبي...

الأحد
الوداع أيها العالم

حل الصباح.

أمام عيني الرسالة التي انتهيتُ من كتابتها للتو.

تمكنتُ من كتابتها بطريقة أو بأخرى، دون أن آكل أو أشرب، ومع إعاقة كرنب لي مرات كثيرة ومشيه فوقي في أثناء الكتابة.

وضعتُ تلك الرسالة في ظرف كبير، واخترت الطابع الذي سألصقه على الظرف.

الطوابع التي لا حصر لها التي يحتويها صندوق حلويات يوكو موكو المعدني. طوابع من شتى بقاع العالم، طوابع ملونة، وطوابع متنوعة.

اخترت منها طابعًا عليه قط نائم، ثم ألصقتُه على الظرف بحذر.

أخذتُ كرنبًا وخرجتُ من البيت.

هبطتُ المنحدر ببطء، في جوٍ صباحيّ ما زالت به برودة خفيفة، ووصلتُ إلى صندوق البريد القريب من البيت.

فتح الصندوق الأحمر الذي أمام عيني فمه الضخم في انتظار وصيتي.

سأرسل الآن رسالتي إلى أبي.

فتصل إليه.

فيقرأ أبي الرسالة.

ثم، يدرك أبي مشاعري أخيرًا.

نهاية مثالية. أجل، كان من المفترض أن تكون، نهاية مثالية.

ولكن، لم أستطع أن أوافق على ذلك.

ثمة خطأ ما. هكذا شعرتُ وأنا أتأمل شاردًا فتحة صندوق البريد الكبيرة.

وفي اللحظة التالية، استدرتُ للخلف، وركضتُ صاعدًا المنحدر حاملًا كرنبًا في حضني.

عدتُ إلى شقتي، ألهث، وأخرجتُ ملابسي من الخزانة.

قميص أبيض وربطة عنق مخططة، وبدلة رمادية.

الزي الموحد لسعاة البريد.

وأنا أبدل ملابسي كنتُ أنظر بطرف عيني إلى المرآة.

انعكاس صورتي على المرآة.

تتطابق صورتي وأنا أرتدي زي ساعي البريد مع صورة أبي وهو يُصلح الساعات.

في غفلة من الزمن أصبحتُ أشبه أبي تمامًا.

وجهه، وطريقة وقفته، وحركته. أصبحتُ صورة طبق الأصل من أبي الذي أكرهه كل هذا الكره.

أبي الذي كان دائمًا يُصلح الساعات بظهر متقوّس، أبي الذي كان يقبض على يدي في دار السينما عندما أشعر بالخوف، أبي الذي اشترى لي طوابع البريد، أبي الذي احتضن كرنبًا بفرح وهو صغير، أبي الذي أخذ يركض في منطقة الينابيع الساخنة، أبي الذي اختبأ في جنازة أمي ليبكي وحيدًا.

ذلك اليوم.

اليوم الذي قررتُ ترك البيت.

صندوق حلويات يوكو موكو المعدني ملقى بمفرده داخل غرفتي الخالية.

لقد وضعه أبي هناك.

وقتها، من المؤكد أن أبي مدّ لي يده.

وما كان ينقص إلا أن أمد يدي، فأقبض على تلك اليد فحسب.

مثلما كنتُ أقبض عليها في دار السينما وأنا طفل، كان القبض عليها كافيًا.

أبي ...

كنتُ دائمًا أريد، أن ألقاك.

أريد أن ألقاك، وأقول لك آسف، أقول لك: شكرًا، أقول لك الوداع.

انسابت دموعي.

فمسحتُها بكم الزي الموحد، ثم وضعتُ الرسالة في حقيبتي وغادرتُ البيت.

هبطتُ درجات سلم العمارة ركضًا وأنا أصدر صوتًا عاليًا من قدمي، وركبتُ الدراجة الهوائية التي أضعها دائمًا أسفل الدرج، ثم وضعتُ كرنبًا في السلة الأمامية للدراجة، وصعدتُ المنحدر وأنا أبدل بقوة.

كان البدّال ثقيلًا. ودراجتي القديمة تصدر صريرًا مزعجًا. تبلل وجهي تمامًا بالدموع والعرق. ومع ذلك واصلتُ التبديل مرارًا وتكرارًا حتى بلغتُ قمة المنحدر.

هبّت عليَّ الرياح.

انقشعت الغيوم، وغمرتني أشعة الشمس الدافئة، فشعرتُ أن الربيع على الأبواب.

في مواجهة تلك الرياح صاح كرنب: «مياو» كأنه مستمتع أشد الاستمتاع.

تمدّدت أمام عيني زرقة البحر، وعلى الجهة الأخرى من الميناء، تقع المدينة التي يسكنها أبي.

تلك المدينة التي كنتُ أراها دائمًا من قمة هذا المنحدر.

المدينة التي لم أستطع الذهاب إليها طويلًا، رغم أنها قريبة إلى هذا الحد.

سأذهبُ إليها الآن. سأذهب إلى حيث يسكن أبي في المدينة المجاورة.

وطئتُ على البدّال، وهبطتُ المنحدر.

تزداد السرعة باطراد هائل.

فتقترب مني تلك المدينة أكثر فأكثر...

مكتبة
t.me/soramnqraa

منذ أن يدرك الإنسان أنه سيموت، يتوصّل إلى تصالح هش بين الأمل في الحياة والتصالح مع الموت، وخلال ذلك يتذكّر الكثير من الأحلام التي لم تتحقق، والكثير من حالات الندم على أشياء تافهة. ولكن بعدما حصلتُ على ميزة إخفاء الأشياء من هذا العالم، أرى أن هذا الندم شيء رائع، فهو الدليل على أنني عشت حياتي في هذا العالم.

*****

حين يقف الإنسان على حافة الموت، وتُعرض عليه صفقة مستحيلة: أن يُمدّ في عمره يومٌ مقابلَ اختفاء شيء من العالم؛ يصير كل تفصيلٍ صغير - من شوكولاتة عابرة إلى هاتفٍ لا تتحدث به مع أبيك - سؤالًا عن معنى الوجود. وتكون الحكاية عن رجلٍ يترقّب نهايته وصفقته مع شيطانٍ قناعًا لهشاشتنا جميعًا لحظة إدراكنا أن البقاء مشروطٌ دائمًا بالخسارات. تطرح الرواية أسئلةً مُعقّدة قد تبدو بسيطةً في ظاهرها: ماذا يعني أن يستمر العالم من دون قطط؟ ومن دون الأشياء التي نظنها ثانوية؟ وما الذي يُمكن فعله في لحظاتنا الأخيرة؟

منذ صدورها، وجدت الروايةُ صدًى عالميًا غير مألوف: بِيعَ منها أكثر من مليوني نسخة، وتُرجمت ونُشرت في أكثر من اثنتين وثلاثين بلدًا، وصارت محل نقاش نقدي واسع، قبل أن تُحوَّل إلى فيلم سينمائي بديع. هي رواية استطاعت تحويل الفَقد إلى سؤال إنساني كوني، عن جنة الاحتمالات الممكنة، ولحظات التأمل ومراجعة شريط الحياة.

الناشر

مكتبة
t.me/soramnqraa

غينكي كاوامورا

لو اختفت القطط من العالم!

9 789921 808865
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com